المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

رامون ماريا دل بايى إنكلان

حديقة موحشة

ترجمة وتقديم

محمد إبراهيم مبروك

1688

سلسلة الإبداع القصصي

حديقة موحشة..

(قصص)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1688
- حديقة موحشة
- رامون ماريا دل بايى إنكلان
- محمد إبراهيم مبروك
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة:

JARDÍN UMBRÍO

Por: Ramón del valle - Inclán

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

حديقة موحشة..

(قصص قديسين، ونفوس معذبة، شياطين، ولصوص)

تــأليـــــــف: رامون ماريا دل بـايي إنكـلان

ترجمة وتقـــديم: محمـــد إبـــراهيم مبـــروك



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إنكلان، رامون ماريا دل بايي.
حديقة موحشة.. (قصص قديسيني، ونفوس معذبة، شياطين، ولصوص)/ تأليف: رامون ماريا دل بايي إنكلان، ترجمة وتقديم: محمد إبراهيم مبروك
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠
٢٤٨ ص، ٢٠ سم
١- القصص الإسبانية
(أ) مبروك، محمد إبراهيم (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ١٣٤٢٥ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى: 978-977-704-139-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

رامون ماريا دل بايى – إنكلان

٢٨ أكتوبر ١٨٦٦م – ٥ يناير ١٩٣٦م

لو تخيلنا أن عروق الذهب ليست سوى نور شمس مختزن تحت سطح الأرض، هذا الذى تقاس به الثروات فى بنوك العالم وأسواق المال، وتتحلى به النساء فى النهار، لتدل الرجال فى الليل بنوره وصليله الذهبى إلى مخادعها فى القمة، فإن أحجار الماس ليست سوى جسر لنور الكون ينفذ عبر كل ماسة لتجذب عيوننا بالسطوع المبهر لإشعاعاتها التى تفيض من كل أوجهها، فلا نتوه فى طرق لا تفضى إلى شىء، بل ترقص بنا لنحلّق فى آفاق تتوجها سماوات رحبة تتسع لكل ما ترسمه عليها خيالاتنا وأحلامنا بكل ألون قوس قزح!

والبناة العظام من المبدعين، وبايى إنكلان ككاتب طليعى فى المقدمة منهم، ماسات نادرة، ما إن يمسنا نور شعاع واحد منها حتى نجد أنفسنا وقد طوتنا شبكة تتخطفنا من الأنوار فنتوهج وقد التف بها كياننا كله فى غمار القلب الحى لهذا الوجود الزاخر بثرائه، حيث تدافع- لا توقف- أرواح وأجساد

تنهض من أحلامنا وذكرياتنا بطاقات لا تنفـد مــن الحــضور والتجدد، فتستحوذ علينا بطاقة جذب لا فكاك منها.

وما إن يتجلى لنا بايى إنكلان حتى ننتبه إلى هذه الصفات فيه: إعصار إبداعات تنفجر بطاقة مبهــرة تستعــصى علــى النكوص أو الأسر فى الأشكال الموروثة، فتراه يهــبُّ مجتاحًــا الطرق المطروقة، والحدود المرسومة السابقة عليه، ليمحوهــا شاقًا لنفسه طرقًا جديدة مغايرة، سميت فيما بعد باسمه، خالقًــا لغته وأساليبه ورؤاه التى حملتها وتحتملها موهبة عظيمة خلقت مكانها ومكانتها السابقة فى الجانب الحى مــن تــاريخ بــلاده، وتاريخ العالم، كماسة متعــددة الأوجــه فــى الأدب الإســبانى والعالمى فى العصر الحديث.

ولد رامون دل بايى إنكلان فى أسرة من أصل نبيــل، إلا أنها لم تكن تتمتع بوضع مالى طيب، فى قرية بيانوبيا أروسا بإقليم جليقية شمال غرب إسبانيا فى ٢٨ أكتوبر ١٨٦٦م، وتوفى فى السبعين من عمره يوم ٥ يناير ١٩٣٦م بمدينة سانتياجو دى كومبو ستيلا.

وفى شبابه ألحقه أبوه بجامعة سانتياجو، إلا أنه لم يحتمل وطأة الدراسة الأكاديمية، التى قــد تتحــول بالنــسبة لــبعض الأشخاص الموهوبين، والتى ربما لم تكن وفق هواهم، إلى مناخ

خانق وطارد، فيضيقون بها. وهذا ما جرى لبايى إنكـلان، إذ انتهز فرصة وفاة والده، فترك الدراسة على الفور، وحرر نفسه ليحلّق بكل أشواقه فى سماوات المجالات المحببـة لـه هـو، والمتعددة المنابع للمعرفة، وخاصة مجالات الإبداع والفنـون، كالأدب فى لغته وفى لغات أخرى، والمسرح الإسبانى، والفنون التشكيلية بالتعرف إلى منجزات فنانيه الكبار فى إسبانيا وإيطاليا، وترجم فى هذه الفترة أعمالاً أدبية عن البرتغاليـة والفرنـسية، والإيطالية، فترجم عن البرتغالية للكاتب البرتغالى الكبير إيسادى كيروز رواية: الرفات، وجريمة الأب أمارو وابن العم باسيليو.

كما ترجم عن الفرنسية رواية: الكونتيـسة دى رومـانى لألكسندر ديماس، وبنات الصديق لوفيشر "بول ألكسيس" وترجم عن الإيطالية: زهرة الغرام لـ ماتيلده سيراو.

وفى عام ١٨٩٢م ، وبعد خيبة أمله فى علاقة غراميـة، سافر إلى المكسيك، فكان ذلك بمثابة هروب من هذا الإخفاق إلى بلد ذى حضارة عريقة، وبه جالية إسبانية كبيرة. وهناك استقل بالكتابة للصحافة الإقليمية، ثم انتقل إلى العاصـمة المكـسيكية واتخذ لنفسه اسمه الأدبى "بايى إنكلان"، وخلال هـذه الرحلـة تعرف إلى المنجزات الأدبية لتيار الحداثة وأعمال لبعض الكتاب المكسيكيين، وأمضى أيضًا بعض الوقت فى كوبا ثم عاد فى عام ١٨٩٣م إلى جاليثيا، وانشغل بمتابعة كتابات الكتاب الفرنـسيين

من الشباب، وفى أول عام ١٨٩٥م نشر أول كتاب لـــه وهـــو يُسمى "نسائيات"، وبعده انتقل فى عام ١٨٩٦م إلى مدريد ليستقر بها.

كانت سنوات كارثية، إلا أنها كانت غنية بنوابـــغ الأدب الذين تعرف إليهم، وعايشهم مـــن خـــلال حياتـــه البوهيميـــة وانخراطه فى نقاشات فكرية وأدبية فى المنتديات الثقافية، وسط ظروف معيشية قاسية، التقى خلالها بعدد من صفوة الكتاب من هذه الفترة:

بينا بنثى، والأخوين باروخا، وأثـــورين، وتحـــول إلـــى شخصية لها احترامها، واشتهر بطرائفه التـــى انتـــشرت فـــى الأوساط الثقافية بمدريد.

وفى يوليو ١٨٨٩م اشتبك بايى إنكلان فى أحد الأيام مع صديقه الكاتب الصحفى مانويل بوينو فى نقاش حاد، احتدم حتى تشابكا بالعصىِّ، فأصاب طرف عصا مانويل هذا كتـــف بـــايى إنكلان فجرحه جرحًا بالغًا أصيب على إثره بغرغرينـــا ممـــا انتهى به إلى بتر الذراع الأيسر.

وما إن وقعت هزيمة الأسطول الإسبانى فى حرب إسبانيا ضد الولايات المتحدة الأمريكية بمياه بحـــر الكـــاريبى وبحـــر الفلبين سنة ١٨٩٨م وفقدت إسبانيا فـــى هـــذه الحـــرب آخـــر

مستعمراتها فى كوبا وبويرتوريكو والفلبين حتى تصدى لأثـــر هذه الهزيمة جيل ٩٨ العظيم الذى كان على رأسه: رامـــون دل بايى إنكلان، وأثورين، وميميل دى أونامونو، ريمو باروخـــا، وأنطونيو ماتشادو.

ولقد تميزت شخصية بايى إنكلان بسمات مركبة، فهـــو جليقى حالم، مولع بالحكايات والخرافـــات الجليقيـــة، وملاحـــم الأبطال، والأفكار المثالية فى المرحلة الأولـــى مـــن حياتـــه، والثورية فى المرحلة الثانية، وارث تقاليد النبالة، ومناضل ضد الحكم الملكى، مناصر للقضايا العادلة، وحقوق الشعب الإسبانى، ناقد دومًا كل أشكال الفساد والزيف، وعدو لكل أشكال السوقية، والانتهازية.

وقد وصفه الشاعر روين داريو فى إحدى سونيتاته بهـــذا الوصـف:

هذا العظيم دون رامون، بلحيته، لحية التيس

وابتسامته هى زهرة شخصيته

يبدو كإله قديم، منكبر، وأشم

وياله من مسلّ فى تمثاله البارد!

ويصفه الكاتب الإسبانى العظيم جوميث دى لاسرنا:

إن أجمل قناع يسير على قدمين هو هذا الرجل الذى يعبر شارع القلعة!

كما وصفه الدكتاتور الإسبانى بريمو دى ريبيـرا: إنـه كاتب فاضل، لكنه مواطن غريب الأطوار!

وكان كثير من معاصريه يرونه: يعـيش حياتـه بـشكل مسرحى حتى يمارسها من خلف قناع، ويحكى الشاعر أنطونيو ماتشادو عن صديق له قال عن بايى إنكلان:

هذا الرجل قادر على أن يحقق كل المآثر التى تنسب إليه، ولو أنه لم يكن قائدًا على جيش الأرض الحارة، فذلك يرجع إلى خطأ المكسيكيين، إذ إنه هو بالذات الذى كان سيخلّصها، لـيس بالسيف، لكن بالقلم. إن بايى إنكلان سوف يكون قديس آدابنا.

ويصفه الدكتور محمود على مكى فى تقديمه للترجمـة العربية المصرية لرواية "بانديراس الطاغية" (ترجمة د. ثريـا شلبى، **المشروع القومى للترجمة**) فيقول: كان بـايى إنكـلان، ومعه ميجيل دى أوتامونو من أبرز رجال جيل ٩٨، وهو مـن أكثر شخصيات الأدب الإسبانى الحديث طرافة، وأصالة، وإثارة للاهتمام، وأول مظهر من مظاهر الغرابة فيه شـكله وهيئتـه، بلحيته الكثة الطويلة التى كانت تفترش صدره كله، وتضاف إلى ذلك غرابة أطواره وبوهيميته، وغرامه بكل مـا يخـرج عـن

المألوف. وكان مولعًا دائمًا بترديد: "إنه على الرغم من انتمائه إلى جيل ٩٨ ، فإنه مختلف عن رفاقه، متميز عنهم".

وتأكيدًا لصدق ما قاله بايى إنكلان عن نفسه، يكفى أن نؤكد أن كاتبنا واصل تقدمه، على العكس من معظم زملائه، وهو الذى بدأ كواحد من المحافظين على التقاليد ينتهى بأن يصبح ثوريًا، والذى يبدو مؤكدًا، هو أن بايى إنكلان يتحرك دائمًا مدفوعًا بتأثره وانفعاله عن صدق، متجاوزًا لدرجة التناقض حدود أيديولوجيته والتزامه بالسياسات الواقعية والاجتماعية لعصره، ولقد قاده ذلك، ليس فقط إلى إثارة صراعات شخصية، بل أيضًا إلى أن يسلك بشكل يضرب فيه عرض الحائط بمواضعات النفاق الاجتماعى تحت مسمى اللياقة.

وفى عام ١٨٩٩م تعرف إلى الشاعر روبين داريو رائد حركة الحداثة، التي صار بايى إنكلان رائدها فى إسبانيا وتمثلت فى إبداعاته منذ ١٨٩٥-١٩٢٠م، وهى المرحلة الأولى التى ظهرت فيها: نسائيات، وحديقة موحشة، والسوناتات الأربع، وزهرة القداسة وسلسلة الحرب الكرلية، وأعمال أخرى.

ولقد عشق بايى إنكلان المسرح وبدأ بالتمثيل فيه، وظل مرتبطًا به بالكتابة له، وتعرف من خلاله على الممثلة خوسيفينا

بلانكو وتزوجا فى عام ١٩٠٧م، وصاحبها فى رحلاتها مع عروضها الفنية إلى بلاد عديدة ومختلفة مثل: الأرجنتين، وشيلى، والأورجواى...

مع بداية العشرينيات، بدأ بايي إنكلان المرحلة الثانية فى حياته الأدبية، بدأها بقوة، وكثرت نشاطاته الاجتماعية، خاصة أنه كان يحب الأسفار، ففى ١٩٢١م تلقى دعوة لزيارة المكسيك من رئيس جمهورية المكسيك نفسه، الجنرال ألبارو أوبريجون، ثم زار هافانا خلال رجوعه، ولقد سببت تصريحات بايي إنكلان القَيِّمة عن صفحة إسبانيا فى تاريخ تلك البلاد حنقًا لشبه الجزيرة، لكن، وفى حينها، لم يكن هناك شك لدى أى أحد فى المدى الذى يمكن أن تصل إليه قدرة الكاتب على النقد والتحريض. لقد كان تمرده فى حاجة إلى معالجة جمالية جديدة وهى التى نذرته للتوصل إلى إبداعه الطليعى فى هذه المرحلة، فهو إبداع يفضح به زمنًا كهذا. لقد قادته معتقداته فمضى يشهر سلاحه الكاشف، فى الوقت الذى ازداد فيه اهتمامه وإدراكه العميق لنضالات الطبقات العاملة، والشعبية، هذا التحول الثورى الجذرى، كما نقول، ترتب عليه استجابة فنية وضحت فى كتاباته مكتملة بأسلوب الإسبرينتو.

حدث ذلك عندما ذكر هذا الاسم: الإسبرينتو، مع نشر عمل مسرحى مسلسل لبايى إنكلان، فى مجلة إسبانيا (يوليو -

أكتوبر ١٩٢٠م، تحت عنوان: (إسبرينتو، أضـــواء بوهيميـــة). وسوف ترى هذه المسرحية النور فيما بعد ككتاب فى ١٩٢٤م بعد إضافة ثلاثة مشاهد جديدة ذات مغزى بالغ الأهمية، وكـــان للإسبرينتو أهمية بالغة فى جماليات الإبداع عند بـــايى إنكـــلان من خلال بيانه فى الفانوس السحرى وتضفير ما هو مأســـاوى مع ما هو مثير للسخرية فى الواقع المعاصر. وأثار بيان بـــايى إنكلان اهتمامًا واسعًا فى حينها.

ولقد حاول بايى إنكلان توضيح مفهومه للإسبرينتو فـــى إحدى مقابلاته الصحفية (١٩٢٨م)، مؤكدًا على أنه توجد ثلاث وجهات نظر جمالية إزاء الأشخاص والواقع: وجهة نظر مـــن موقع الراكع، وثانية من موقع الواقف، وثالثة من موقع أعلى.

فالأولى: هى ما يراه الراكع وتخص الأدب الكلاسيكى – التراجيدى والملحمى – والمؤلف فيه يشعر بأنـــه أدنـــى مـــن شخصياته التى هى آلهة، أو أبطال، وهوميروس ينـــسب إلـــى أبطاله المنزلة التى يجب أن يكون عليها البشر والرجال بـــشكل ما.

والثانية: هى ما يراه الواقف، يمثلها مسرح شكسبير، لأنه يعتبر أن شخصياته التى هى من لحم ودم، مثله هو نفسه، فحالة الغيرة عند عطيل هى حالة الغيرة نفسها التى يمكن أن يعانيهـــا

المؤلف، وكذلك شكوك هاملت هى نفسها الشكوك التى يمكن أن يعانيها هو نفسه.

والثالثة: هى التى يراها الناظر من أعلى، وتخص الإسبرينتو.

فهو يطل على الشخصيات ويتأملها من أعلى، تفصله عنهم مسافة، فيراهم من زاويته مثيرين للتهكم، غريبى الأطوار، باعثين على السخرية والضحك من أشكالهم الشائعة، وسلوكهم غير المبرر، وأنهم فى منزلة أدنى من خالق هذه الشخصيات. وبالطبع، ليس فى الأدب المعاصر الآن أبطال ملاحم، والآلهة تحولت إلى شخصيات هزلية فى مهزلة شعبية!

ما السر وراء تطور بايى إنكلان من الحداثة إلى الإسبرينتو؟

ما إن نجحت الثورة الروسية فى أكتوبر ١٩١٧م، وأقامت أول دولة اشتراكية فى التاريخ حتى أبدى بايى إنكلان تحمسه لها ومناصرتها، وقارب الفكر الماركسى حتى تشبع به، وإزاء هذا التحول فى الرؤية والموقف وجد نفسه مهتمًا ومنشغلاً بقضية العدل الاجتماعى، والانحياز التام لمصالح الطبقة العاملة والطبقات الشعبية، وبهذه الرؤية تحولت أعماله إلى أعمال برزت فيها تقنية الإسبرينتو: وهى وجهة النظر الجمالية التى

تقوم على كشف القناع ، والنضج الساخر للوضع الاجتماعى والسياسى وعلى رأسه السلطة في إسبانيا فى ظل الحكم الدكتاتورى لبريمودى ريبيرا. وكان بايى إنكلان وإلى جانبه ميجل دى أونامونو واحدًا من أبرز الكتاب المعارضين لهذا النظام، ولم يتوان عن فضحه والتشهير بفساده فى بيانات منشورة تعبر عن سخطه وعدم رضاه، وصل إلى الحد الذى طالب فيه، من أجل إسبانيا، بدكتاتورية مثل دكتاتورية لينين.

وشارك فى الحركة السياسية بتأييده ومساندته للحركة الطلابية بقيادة الاتحاد الثورى الراديكالى لطلاب الجامعة الإسبانى، وساند الإضراب الطلابى فى عام ١٩٢٩م، مما ترتب عليه اعتقاله وسجنه فى معتقل موديلو لمدة أسبوعين، ولذلك كله تعرض مسرحه الذى يعكس رؤيته الإسبربينتو لتعسف الرقابة ومنع عروضه.

وفى سنواته الأخيرة لم يُخف بايى إنكلان تعاطفه الواضح والصريح مع الشيوعيين، إذ بادر فى عام ١٩٣٣م إلى عقد أول مؤتمر فى نادى مدريد لاتحاد الكتاب والفنانين الثوريين، وفى العام نفسه اختير رئيسًا فخريًا لجمعية أصدقاء الاتحاد السوفيتى.

كان لذلك التطور الهائل فى فكر بايى إنكلان بالغ الأثــر فى بلورة رؤيته الجمالية "الإسبرينتو" التى تجلت فى كل أعماله المسرحية والروائية منذ ١٩٢٠م حتى آخر أيــام حياتــه فــى ١٩٣٦م. وكانت أوائل هذه الأعمال بالغة الوضوح فى عمليــه الكبيرين: مسرحية: أضواء بوهيمية، وروايته المنفردة والرائدة لأدب الدكتاتور: **بانديراس الطاغية** (١٩٢٦م) وهى أول رواية تعالج قضية الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية، وتنسحب على أية دكتاتوريات أخرى فى أى مكان من العالم، وقد اقتدى بها، وما من شك أنها قرئت وتم هضمها تمامًا مــن قِبَــل مــن كتبــوا الروايات التى اتخذت مسارها فيما بعد مثل:

السيد الرئيس (١٩٤٦م) للكاتب الجواتيمالى ميخيل أنخل أستورياس.

ميتات كلب (١٩٥٨م) للكاتب الأسبانى فرانسيسكو أيالا.

نقض الحكم (١٩٧٤م) للكاتب الكوبى أليخو كاربنتيير.

أنا الأعظم (١٩٧٤م) للكاتب الباراجوانى أوجــستو روا باسطوس.

خريف البطريرك (١٩٧٥م) للكاتب الكولومبى جابرييــل جارثيا ماركيث.

حفلة التيس (٢٠٠٠م) للكاتب البيروانى ماريو بارجاس يوسا.

كيف انتقمت الأقنعة لنفسها بمطاردة أعمال بايى إنكلان منذ بريمودى ريبيرا حتى آخر أيام فرانكو؟!

الإسبرينتو، فى اللغة الإسبانية، كلمة تعنى شخصًا أو شيئًا قبيحًا، أو شنيعًا، أو لا معقولاً، أو باعثًا على السخرية. وإطلاق هذه الصفات على "الإسبرينتو" عند بايى إنكلان هو خطأ فادح، لأن من يفعلون ذلك يقفون عند حدود المعنى القاموسى للكلمة، ولا يحاولون التوصل إلى المفهوم. فهى عند بايى إنكلان "مفهوم" وليست المعنى الحرفى المجرد للكلمة.

لذلك فأنا لا أستطيع تسميته بأدب الشبح؛ لأن الأدب فعل جمالى، هو معالجة جمالية للواقع بالنسبة للكاتب فى رؤيته لشخصياته.

إذًا فالأجدر بالتسمية، عند بايى إنكلان: أدب الكشف عن القبح أو الغشاوة، أو الشنيع، نزع القناع عنه، تعريته، فضحه تحت حكم الأنظمة المستبدة الفاسدة، والعلاقات الاجتماعية القائمة على الخنوع، والنفاق، والتواطؤ، والكذب، والانتهازية، والسوقية والزيف فى كل أشكال السلوك العملى، أو الأداء اللغوى وتسمية الأشياء بعكس ما تعنيه.

إن القول بأن الإسبرينتو يشوه الواقع هو محض افتراء وتوصيف يتضمن اتهامًا فى غير محله، بل هو تستر على كون الجريمة والبشاعة هى الكامنة فى بنية هذا الواقع وعلاماته المشوهة، وليس مصدرها الكاتب. إنه انحياز غير واعٍ، وربما واعٍ مع تعمد إخفاء الحقيقة، وهى أن الرؤية الصادقة والحقيقية للكاتب، هى الكاشفة وليست الخالقة، إنه نفس منطق البورجوازيين الذين يتهمون ماركس ونظريته بأنهما وراء الصراع الطبقى، مع أن الصراع الطبقى موجود منذ فجر التاريخ، لم يخلقه ماركس، وكل ما فعله هو أن كشف عن وجوده وأوضح قوانينه.

هذا هو المضمون الحقيقى لرؤية بابى إنكلان، الذى يكشف بالدرجة الأولى عن عمق إدراكه للأوضاع الاجتماعية فى عصره، ورؤيته النقدية الساخرة لكل أوجه الفساد والتزييف، وهى رؤية وصلت إلى ذروتها عند بابى إنكلان بعد تبنيه للفكر الماركسى، وانحيازه للطبقات المقهورة بالاستغلال والدكتاتورية: العمال والفلاحين، والبورجوازيين الصغار والفوضويين فى مواجهة البورجوازيين الكبار وبقايا الإقطاع، والمدعومين من حلفائهم فى النظام الرأسمالى العالمى، إنهم النظم الحاكمة الرجعية، والجيش، والسلك الكهنوتى، وهم بمثابة معسكر أعداء ثورات الشعوب.

إذًا فالإسبرينتو ليس مجرد حلية جمالية، أو مذهبًا جماليًا هبط عليه من السماء فجأة، إنــه اكتــشاف عبقــرى ورؤيــة لإمكانيات تكنيك يقوم على النقد والفضح والسخرية مــن كــل أشكال الجمود، والتسلط، والتكالب على السلطة والاستئثار بها، وهو- كما سبق أن أشرنا – ابن تحول وتطور فكــرى، وتــبنٍّ للماركسية، نظرية الثورة، وهذا ما تجنب الإشارة إليه أو ذكره كل الأساتذة الذين قدموا لنا بايى إنكلان فى مقدماتهم لما تــرجم له، أو فى فصول دراساتهم هنا فى مصر. والــسؤال المنطقــى هو: لماذا أخفوا، أو تحاشوا، أو تغافلوا عن الإشارة إلــى مــا وراء هذا التطور الذى أفضى إلى "الإسبرينتو"؟ وهل كان يمكن لبايى إنكلان أن يقدم لنا هذا الإبداع الذى شق طريقًا جديدًا فــى الرواية أو المسرح فى العالم لو لم يرتكز هذا التطور الجمــالى على هذا التطور الفكرى الجذرى، ولا أقول الانقلاب الفكــرى، لأن بايى إنكلان، بطبيعة تكوينه وميله دائمًا إلى الفكر المتجاوز وبتمرده وثوريته على ما كان سائدًا فى حياته، وفى عــصره. كان لا بد أن يلتقى مع الماركسية التى كانت التتويج الفكرى لما ينشره فى محتوى ثورى يتسق مع تكوينه النبيل.

لقد عاش بايى إنكلان وأبدع وخاض معاركه بنبل وبسالة، وعندما حانت منيته، لم يكن سوى إعصار يتجمع ويصفو باعثًا

نوره على هيئة ماسة فريدة تبعث لنا بنورها إلى الآن ساخرة من قناع الموت الذى يكذبه خلوده الأدبى!

الأعمال الأدبية لرامون ماريا دل بايى إنكلان

الأعمال الروائية:

وجه الإله (١٩٠٠م)

سوناتا الخريف (١٩٠٢م)

سوناتا الصيف (١٩٠٣م)

سوناتا الربيع (١٩٠٤م)

زهرة القداسة (١٩٠٤م)

سوناتا الشتاء (١٩٠٥م)

سلسلة الحرب الكارلية (١٩٠٩م)

مسامرة فى الزمن القديم (١٩٠٩م)

فى ضوء النهار (١٩١٧م)

بانديراس الطاغية (١٩٢٦م)

نهاية ثائر (١٩٢٨م)

سلسلة الحلبة الأسيرية (بلاط العجائب ١٩٢٧م)

يحيا ميدى (١٩٢٨م)

قبضة السيوف: سهرات سبتمبرية (١٩٣٢م – غير كاملة)

الرعد الذهبى (١٩٣٦م–قطعة).

أعمال قصصية:

نسائيات (١٨٨٥م)

أغنية عرس (١٨٩٧م)

بلاط الحب (١٩٠٣م)

حديقة موحشة (١٩٠٣م)

حديقة قصصية (١٩٠٥م)

حكايات شريرة (١٩٠٧م)

بلاط الحب: نخبة من السيدات الشريفات (١٩٠٨م)

صندوق من خشب الصندل (١٩٠٩م)

أعمال مسرحية:

رفات (١٨٩٩م)

كوميديا بربرية (١٩٠٧م)

الماركيز دى برادومين (١٩٠٧م)

قفر الأرواح (١٩٠٨م)

قصة إبريل (١٩١٠م)

رأس التنين (١٩١٠م)

أصوات ملحمية (١٩١١م)

المسحور (١٩١٢م، ١٩١٣م)

الماركيزة – روساليندا (١٩١٢م)

كلمات إلهية (١٩١٩م)

أضواء بوهيمية (١٩٢٠م)

محبوبة الملك (١٩٢٠م)

الملكة الأصيلة (١٩٢٠م)

قرون دون فريوليرا (١٩٢٠م)

وردة من ورق (١٩٢٤م)

رأس المعمدان (١٩٢٤م)

حلى المتوفى (١٩٢٦م)

ابنة الكابتن (١٩٢٧م)

عرض لمسرح العرائس للبخيلـــة، والـــشبقة، والمـــوت (١٩٢٧م)

الأعمال الشعرية:

نفحات الأسطورة (١٩٠٧م)

بيبة الكيف (١٩١٩م)

المسافر (١٩٢٠م)

مفاتيح شعرية (١٩٣٠م)

أعمال أخرى:

عسل بستان الورد (١٩١٠م)

المصباح السحرى (١٩١٦م)

منتصف الليل (١٩١٦م)

أزهار اللوز (١٩٣٦م)

حديقة موحشة

فانوس مضاء معلق أمام الباب ليضىء للداخلين

الطبعة الأولى من حديقة موحشة التـــى صـــدرت فـــى ١٩٠٣م لم تكن تضم كل النصوص التـــى تـــضمنتها طبعتهـــا النهائية التى صدرت فى عام ١٩٢٠م، وهى التى بـــين أيـــدينا وقدمت هذه الترجمة الكاملة لها، وهى المجموعة التـــي تـــضم ثلاث روايات قـــصيرة هـــى "بياتريـــث" و"أختـــى أنطونيـــا"، و"روساريتو" ومشهدين دراميين هما "حلـــم تراجيـــدى"، "حلـــم كوميدى"، واثنتى عشرة قصة قصيرة هى خوان كينتو، وعبادة الملوك، والخوف، وزعيم، وقداس من أجـــل ســـان إليكتـــوس، والملك المقنع، وبشكل غامض، وفى منتصف الليل، وأبو جدى، وميلون دى لا أرنويا، ومثال، وليلة عيد الميلاد.

والروايات الثلاث هى بالتأكيد من أفضل ما كتـــب بـــايى إنكلان، باختيار الكاتب لها لتضمها الطبعة النهائية، فضلاً عـــن دافع آخر هو أنها مفعمة بأجواء جليقية تـــسيطر علـــى بـــاقى القصص.

والشخصيات التى تمثل الأبطال لهذه الروايـــات الـــثلاث هن: شابات جميلات من الطبقة العليا، سوف نعرف مـــع تقـــدم

السرد أنهن الضحايا البريئات لأعمال سحر، أو الوقوع ضحايا الافتتان بالسحر الشخصى المنطوى على شر بلا حد للرجـل، والذى ينتهى إلى حب مأساوى مهلك **(كما فـى روسـاريتو)**، وأعمال شيطانية تجسدها فى جليقية أخيلة وممارسات العجـائز المعتقدات فى أعمال السحر، وشر العين، مثل السحر الذى انتقل عبر تفاحات رينيت، والقطة السوداء، والتعاويذ كما فى أختـى أنطونيا، وبقية قصص المجموعة.

وهذه القصص كلها تجرى وقائعها فى جليقية، فى جـو مشبع بالأساطير، إذ يعتقد الناس فيها بـالفطرة، فيـصدقونها، ويتكتمون على وقائعها، ويحاولون لذلك أن يتقوا شـر العـين، ويتعلقون فى حياتهم بالتفاؤل والتشاؤم، ويرسِّخ ذلك فى أرواحهم تحلقهم فى الليالى حالكة الظلمة شديدة البرودة، حـول نيـران المواقد للتدفئة بينما يسمعون الريح فى الخارج، والتـى يتـسلل إليهم هزيمها من المداخن، إذ تكثر تعليقـاتهم حـول الـسحر، والشياطين، والأرواح المعذبة، ويرددونها، ويزيدون ويعيـدون فى تفاصيلها، فى هذا الوادى، وادى ساليناس، وأمام هذا البحر، بحر روسا، فى هذا الجو بأساطيره الغامضة، قضى رامون دل بايى إنكلان طفولته وفتح عينيه على جو يطبق عليه الـضباب وتحاصره الأمطار، وأول ما التقطته أذناه، كان حكايـات عـن أعمال السحر والأرواح الشريرة، وكيف تنتقل بين الناس متخذة

شكل حيوانات، أو أطياف بشر تتناقلها العجائز، ويحكينها كروايات شعبية أو أحداث متخيلة عن وقائع فى أزمنة سحيقة، انتقلت إلى رامون بايى إنكلان فى طفولته كما حكى لنا فى مدخل حديقة موحشة عن المصدر الذى استهلم منه هذه القصص وهى ميكائيلا لاجالانا العجوز الطاعنة فى السن التى كانت عند جدته، وكانت تقضى الساعات وهى تغزل بجوار النافذة وتحكى قصصًا كثيرة عن قديسين ونفوس معذبة، وشياطين، ولصوص. ويقول بايى إنكلان:

والآن أنا أحكى تلك القصص التى كانت تحكيها لى، بينما كانت أصابعها المليئة بالتجاعيد تدير المغزل، تلك الحكايات كانت تفزعنى فى الليل خلال سنوات طفولتى، ولذلك لم يدركها النسيان، ولا تزال من وقت لآخر تلح على ذكراتى، كما لو أن ريحًا صامتة وباردة تمر فوقها، لها نفس الحفيف لأوراق شجر جافة تتساقط، الحفيف الذى لحديقة عتيقة مهجورة، حديقة موحشة!

هذه الحكايات المأخوذة من التراث الشعبى المحكى شفاهة، قدمت لنا - وقد تمت إعادة صياغتها بروح مبدع وفى خلال أسلوبه الذى يمتاز بقدرته الفائقة - نصوصًا أدبية لما فيه كتبت بعناية وطاقة شعرية وخيال متوهج، وعلى الرغم من

صياغاته الماهرة، لم يبعدنا الكاتب عن روح وأجواء تراثه الشعبى الشفاهى، نبعها الأصلى.

ويقول ديات بلاخا: "إن جليقية التى نراها فى قصص بايى إنكلان، ليست هى جليقية البحر، بساحلها شديد الانحدار (**ساحل الموت**)، أو الوديان التى تنساب خلالها الأنهار فى رِقَّةٍ، بل جليقية الأراضى الواقعة على مشارف الجبال، والدور الريفية للأعيان وحدائقها، الكنائس المتواضعة المعتمة الرطبة فى هذه الدور، نرى فيها الطواحين، بطنين أصوات المياه الجارية المندفعة فى مزاودها ، والكنائس العتيقة ومنازل رؤسائها والطرق الزراعية الغائرة، عزلة الإقليم وتجمده تحت الثلوج فى فصل الشتاء وقممه التى تغطيها نباتات الخلنج والسيزال والكتان".

وفى هذه القصص يمكننا أن نرى جماعات من رؤساء الأديرة والقساوسة وخدام الكنائس وهم يمرون أمامنا على التوالى بوجوههم العابسة ونظراتهم المتسلطة المتجبرة مثل حيوانات الجبال البرية المفترسة، كما نرى شابات أنيقات وساذجات، وكونتيسات منتميات إلى سلالات عريقة، وقائمين على أراضى الأوقاف، وكتبة، وخدم، وفلاحين، ورعاة، وشحاذين، وعصابات، ومتآمرين.

شبان عضَّهُمْ ذئب مسعور، ونساء تتلبسهن أرواح شريرة، عجائز يشتغلن بالسحر وقادرات علـــى شـفاء المـــصابين بـــه والمصابات بأعمالهن.

عرافات، ونساء قليلات الشأن يعصبن رءوسهن ويصلين فى ظل حائط، ويستحضر لنا بايى إنكلان عادات الحياة الجليقية وطرقها: الفرق الموسيقية الجوالة، أقنعة الكرنفالات، والأغانى الشعبية فى أعياد الميلاد، التى تستخدم فيها الصنوج والـــدفوف، طقوس السهر على الميت قبل دفنه، العجـــائز وهُـــنَّ تـــشتغلن بالإبرة طواقى للرأس، وجوارب، أرغفة خبـــز الـــذرة، النبيـــذ اللاذع، والنبيذ الطازج فى محصول العنب الذى يتم قطفه مـــن مزارع كرومهم، قصاع اللبن، والبقلاوة المقلية فى الزيت بلونها الأشقر.

فى هذه المرحلة الأولى من إبداع بايى إنكلان الأدبى – مرحلة الحداثة – ومنها هذه المجموعـــة القصـــصية: حديقـــة موحشة، كان أبرز ما ميز بايى إنكلان هو لغته التـــى تـــضج بتوهج ألوانها، ورهافة نَحْتِه لها، وغنى موسيقاها، التـــى قـــال عنها صديقه ورفيقه من جيل ٩٨ بيميل دى أوناموتو إنها تقتحم بإيقاع خاص، وتسترسل بسلاسة على شكل موجات، بل ويبدو نثره أحيانًا فى رحابة المحيط.

فضلاً عن أن ما يساعده على ذلك هو تراثه الجليقى الذى تتميز لغته بأنها منغمة، ذات جرس، ولكلماتها عذوبة عند النطق بها.

وإذا كان شاعر نيكاراجوا هو رائد (**الحداثة**) بين شعراء أمريكا اللاتينية فقد صار بايى إنكلان هو رائد وصاحب (**الحداثة**) فى إسبانيا، بما يمتلكه من طاقة شعرية هائلة تتبدى فى كل كتاباته، أشعارًا، أم قصصًا أم روايات، أم مسرحيات، وأسلوب متوفز يحلّق به ويتجاوزه في سباقه مع ذاته نفسها، نافخًا فى لغته الجليقية من روحه ليحيلها إلى جمرات تضوى، باعثة وهجها، وحرارتها في الشخصيات، والمشاهد، والحوارات، بإيقاعات مموسقة، وأطياف تتطلق وتتحول في الليالى المقمرة فى واقع تسكنه الأسطورة، والخرافة، وأعمال السحر واتقاء شر العين وما يثيره التشاؤم من مخاوف، والتفاؤل من أحلام.

روح الأسطورة هذه، أو عطر الأسطورة، كما أطلقه بايى إنكلان، عنوانًا لأحد دواوينه الشعرية، يغلف عالمه هذا في مرحلته الأولى البكر من إبداعه بجو الأسطورة، الذى جعل من أعمال بايى إنكلان، بل وحياته وشخصه، أسطورة حية في التاريخ الثرى والخصب للأدب الإسبانى، والعالمى.

والآن، تعالوا لندخل، ومعنا الفانوس المضاء المعلــق أمام الباب، لندخل به هذه الحديقة الموحشة، لنكتــشف، ويــا للغرابة، أى شجن، واستعذاب، بل وموجات من ومضات تتألق وتتناثر من الفرح، منحها لنا هذا الكاتب: الاستثنائى!

محمد إبراهيم مبروك

القاهرة / ١٦ إبريل ٢٠١٠

خوان كينتو

ميكائيلا لاجالانا روت حكايات كثيرة عن خوان كينتو، هذا الصعلوك الذى، عندما كانت هى شابة، كان قادرًا على أن يهز أرض سالنيس كلها. حكت كيف أنه فى إحدى الليالى، وبفضل الظلام، دخل ليسرق بيت راعى كنيسة سانتا بايادى كريستاميلدى. وكان بيت رئيس دير سانتا بايا مجاورًا للكنيسة، فى العمق من المساحة الخضراء لحوش تحتله المقابر وتغطيه ظلال أشجار الزيتون. وفى هذا الوقت الذى تكلمت عنه ميكائيلا، رئيس الدير كان رجلاً عجوزًا مأذونًا له بالخروج من الدير. لاتينى طيب، ولاهوتى صالح. وكان مشهورًا عنه أنه غنى، وقد رآه وهو يتاجر ويختال راكبا فرسة سمينة، ومعه دائمًا أخراج مليئة بالجبن. خوان كينتو، لكى يسرقه، تسلق النافذة، التى يتركها عادة، فى أوقات الحر، مفتوحة رئيس الدير المطرود. تسلق الصعلوك وهو يخربش الحائط وعندما صار فى مواجهة الجزء العلوى من النافذة ومعه سكين أطبق عليها بين أسنانه، رأى رئيس الدير وقد آوى إلى فراشه وهو يتثاءب. خوان كينتو وثب داخل الصالة صارخا بوحشية وكان ما يزال ممسكًا بالسكين. طقطقت ألواح الأرضية الخشبية مع تلك السمعة المرعبة المرتبطة به وسط تلك الجلبة كلها. واقترب خوان كينتو من السرير، ووجد عينى القسيس العجوز مفتوحتين وهادئتين وكانتا تتطلعان إليه:

ـ أى فكرة شريرة أتت بك، يا لص!

رفع الصعلوك السكين:

ـ الفكرة التى أتت بى هى أن تسلمنى النقود التى تخفيها، يا سيدى رئيس الدير.

الراهب ضحك بمرح:

ـ أنت خوان كينتو!

ـ سرعان ما تعرفت علىَّ.

كان خوان كينتو طويلاً، قويًا، أنيقًا، نحيلاً. له لحية نحاسية، وحدقتا عينيه خضراوان كزمردتين، جسورتان، ومثيرتان. وفى الطرق، بين التجار المحتالين، وتجار الأسواق، ينجح الصوت العالى والمتحمس بقوة، والمأذون له بالخروج من الدير كان يعرف مميزات ذلك الصعلوك الذى يحدق فيه الآن، بالسكين المرفوعة كى تخيفه:

ـ أحضر النقود بسرعة يا سيد يا رئيس الدير. كيس النقود أو حياتك!

قال الراهب متعجبًا:

ـ لكنك جئت فاقد الرشد. كم كأسًا سفحتها أيها الفاجر؟ أعرف سلوكك السيئ. فهنا يأتى كثير من أبناء الأبرشية ليشكوا آلامهم... لكن، يا رجل، لم يقولوا لى إنهم يعانون من السُكْر!

صرخ فيه خوان كينتو فجأة بشكل عنيف:

ـ يا سيدى يا رئيس الدير، صلّ لى أنا الخاطئ!

ـ صلّ أنت، ما أكثر الخطايا التى ارتكبتها.

ـ كم من رقاب قطعتها!، وألسنة خرمتها!، وأكباد أكلتها!

استمر رئيس الدير محتفظًا بمرحه وشد إليه المخدة:

ـ لا تكن بربريًا، يا لص!. إننى أشك فى أنك كثيرًا ما أكلت اللحم نيئًا.

ـ لا تلعب معى لعبة الثرثرة، يا سيدى رئيس الدير، كيس النقود أو حياتك!

ـ ليس لدىَّ نقود، وإذا كنت أمتلكها فلن تذهب أيضًا إليك. انصرف واحفر الأرض.

رفع خوان كينتو السكين فوق رأس الراهب المسموح له بالخروج من الدير:

ـ سيدى يا رئيس الدير، صلّ لى أنا الخاطئ.

رئيس الدير ختم بأن قطب ما بين حاجبيه:

ـ لا تخدعنى. إذا كنت سكرانًا، امشِ ونَمْ، وفى المستقبل تعلَّم أنه بالنسبة لى عليك أن تسلك بشكل آخر فيه احترام لسنوات عمرى ومن أجل كرامة مركزى الكنسى.

ذلك الفاجر الوقح والعنيف بقى صامتًا للحظة، وبعد ذلك همهم بصوت موحش ومغطى بحجاب:

ـ حضرتك لا تعرف من هو خوان كينتو!

وقبل أن يرد عليه الراهب المأذون له بالخروج من الدير، نظر إليه من أعلى إلى أسفل بغفران عظيم:

ـ أفضل من يعرفه هو أنت نفسك، مسيحى خاطئ.

ألح الآخر بغيظ عاجز:

ـ أسد.

ـ قط!

ـ النقود!

ـ ليس لدىَّ نقود.

ـ وأنا لن أذهب بدونها!

ـ إذًا لن أستقبلك كضيف.

فى النافذة وأشعة النهار تتسرب والديكة تؤذن حاسمة انبلاج الفجر.

نظر خوان كينتو حوله، من خلال الصالة الواسعة حيث ينام المقبول فى سلك الإكليروس، عثر على الدرج، عطس الراهب:

ـ جئت برياح غير طيبة.

وبدأ يرتدى ملابسه بتأنٍّ، وفى الصلاة باللاتينية. ومن وقت لآخر، ولكى يرسم على نفسه علامة الصليب، وهو ينظر إلى اللص الذى يروح ويجىء من جانب إلى الجانب الآخر معتديًا على حرمة البيت. ابتسم الراهب بمكر وسخرية:

ـ فتش، فتش!، لن تجدنى أنا فى وضح النهار، وسوف تجد نفسك بلمسات خفيفة!...

وعندما انتهى من ارتداء ملابسه، خرج إلى الشرفة المشمسة ليرى كيف طلع النهار.

غردت الطيور، وارتعشت الحشائش، وكل شيء عاد يولد من جديد مع فجر اليوم. والراهب صرخ فى الصعلوك، والذى يواصل الاعتداء على حرمة البيت بتفتيشه للدرج:

ـ هات كتاب الصلوات والأدعية، يا لص!

وظهر خوان كينتو بكتاب الصلوات والأدعية وسلمه له بيديه، الراهب المأذون له بالخروج من الدير وبخه توبيخاً مفعمًا بالغفران له.

ـ لكن من الذى أشار عليك بأن تأخذ طريق الشر هذا؟ تحمَّل واحفر الأرض بحثًا عن رزقك، يا لص!

ـ أنا لم أخلق لأشتغل بحفر الأرض، فى عروقى دم سادة!

ـ إذًا اشترِ حبلاً واشنق نفسك، لأنك لكى تسرق تـشتغل أيضًا.

بهذه الكلمات نزل الراهب درجات السلم للشرفة المشمسة ودخل إلى الكنيسة ليقيم قداسه. وشبيهًا بكلب سلوقى هرب خوان كينتو واجتاز بعض حقول الذرة، وبعد ذلك مضى إلى الجبال فى الصباح، وفى طراوة النهار حيًّاه فلاحون كثيرون. ووقع حادث هذا اليوم نفسه الذى تميز بهوائه الطلق وأريجه. إذ سُرق وقُتل تاجر محتال فى طريق سانتا ماريا دى ميس.

ميكائيلا لاجالانا، فى نهاية الحكاية، خفضت من صوتها ورسمت على نفسها علامة الصليب، وتمتمت بفمها الخالى من الأسنان، ذاكرة شجرة نسب خوان كينتو:

ـ إنه من عائلات محترمة. ابن روميخيو دى بيالونا وحفيد بورو، الذى كان رفيقًا للسيد المرحوم فى معركة جسر سان بايو.

لنصلِّ "أبانا الذى" من أجل الأموات ومن أجل الأحياء.

عبادة الملوك

تعالوا، تعالوا، أيها الملوك المقدسون

وتطلعوا إلى ملايين الحلى

والطفل الصغير

جميل كحلية تتزين بها النساء

كم هو جميل

أن يولد مثلما تولد غيمة أو شمس

ما إن غربت الشمس حتى ارتفع الحداء من الرعاة حول النيران الموقدة للاصطلاء، ومنذ غروب الشمس، مسترشدين بهذا النور الآخر الذى ظهر ساكنًا فوق أحد التلال، وسار الملوك المقدسون. مضى الثلاثة فى الرطوبة المنعشة اللطيفة لليل يجتازون الصحراء. النجوم تلمع فى السماء، والأحجار الكريمة فى التيجان الملكية تبرق فوق جباههم. نسمة طرية تجعل العباءات الموشاة ترفرف: التى لجاسبار من قماش أرجوانى من كورنتو، والتى لميلشور من قماش أرجوانى من تيرو: والتى لبالتاثار من قماش أرجوانى من منفيس.

عبيد سود، هم من يسيرون على أقدامهم تغوص صنادلهم في الرمال، يسوقون الجمال بيد موضوعة في قفاز قرمزى من الجلد، تتموج بسلاسة أقواس الأعنة، وبين حواشـــى الـــسروج الحريرية تتأرجح أجراس ذهبية صغيرة. كان ملوك المجــوس الثلاثة راكبين جمالهم ويتحركون فى شكل طــابور، بالتاثــار المصرى كان فى المقدمة، ولحيته الطويلة تنزل على صـــدره، وكانت أحياناً تمرح على كتفيه... وعندما صاروا على أبــواب المدينة بركت الجمال، والملوك الثلاثة نزلوا وخلعــوا تيجــانهم وصلوا على الرمل.

وقال بالتاثار:

ــ ها نحن قد وصلنا إلى تمام رحلتنا!...

وقال ميلشور:

ــ لنكن من أتباع الذى ولد ملكاً لإسرائيل...

وقال جاسبار:

ــ العيون تراه، وكل شيء فينا سيكون طاهرًا.

وعندئذٍ عادوا لركوب جمالهم ودخلوا المدينة من البوابــة الرومانية، ومهتدين بالنجم وصلوا إلى الحظيــرة، حيــث ولــد

الطفل، وهناك، العبيد السود، ومثلما كانوا وثنيين، ولا يدركون شيئًا، نادوا بأصوات فظة:

ـ افتحوا!... افتحوا الباب لسادتنا!

وعندئذٍ انحنى الملوك الثلاثة فوق مقدمات السروج وتحدثوا إلى عبيدهم، والذى جرى أن الملوك الثلاثة قالوا بصوت خافت:

ـ راعوا ألاّ توقظوا الطفل!

وأولئك العبيد، ممتلئين خوفًا واحترامًا، بقوا خرسًا، والجمال التى بدت ساكنة أمام الباب، طرقت الباب برفق بخفها، وهكذا وفى الوقت نفسه، انفتح ذلك الباب العتيق من خشب الأرز دون أن يحدث صوتًا. وشيخ بصدغ خالٍ من الشعر ولحية بيضاء ظهر على عتبة الباب: فوق الفروة التى تغطى شعره الطويل والناصرى يرتعش قوس إكليل ذهبى، قميصه كان أزرق ومزينًا بالنجوم مثل السماء العربية فى الليالى الصافية، أما العباءة فكانت حمراء، مثل البحر الأحمر فى مصر، والعصا التى يتوكأ عليها كانت من الذهب، مزينة فى أعلاها بثلاثة زنابق بيضاء من الفضة. ما إن شاهدوا أنفسهم فى حضرته حتى انحنى الملوك الثلاثة له، وإذا الشيخ يبتسم ابتسامة مفعمة ببراءة طفل وأفسح الطريق أمامهم للدخول قائلاً بفرح وقداسة:

ــ تفضلوا بالدخول!

وهؤلاء الملوك الثلاثة الذين أتوا من الشرق فوق جمالهم البيضاء، عادوا ليحنوا جباههم بتيجانهم، وجذبوا عباءاتهم الأرجوانية وصلبوا أيديهم فوق صدورهم داخلين الحظيرة. صنادلهم الموشاة بالذهب تحدث حفيفًا فيه تناغم. أما الطفل، النائم فى المزود فوق قش الشيلم الأشقر، فقد ابتسم فى أحلامه. وبجواره كانت الأم موجودة، وكانت تتأمله راكعة على ركبتيها ضامة راحتيها عليهما: ثوبها بدا مأخوذًا من الغيوم، وأقراطها من النار، ومثلما فى زرقة بحيرة الناصرة، ترقرقت فى العباءة توهجات ذهبية. ومد ملاك فوق المهد جناحين، من نور، ورموش الطفل رفرفت كفراشات شقراوات، والملوك الثلاثة سجدوا من أجله، وبعد ذلك قبلوا قدمى الطفل، ولكى لا يوقظوه، أبعدوا لحاهم الطويلة والتى كانت ثقيلة ومهيبة مثل الصلوات. وبعد ذلك قاموا، وعادوا إلى جمالهم وحملوا منها له هداياهم: ذهب، بخور، مُرّ.

وقال جاسبار وهو يقدم إليه الذهب:

ــ لكى نتبعك جئنا لك من الشرق.

وقال ميلشور وهو يقدم إليه البخور:

ــ لقد وجدنا المخلص!

وقال بالتاثار وهو يقدم إليه المر:

ـ طوبى لكم يمكننا أن نسمى بها بين كل المواليد!

وملوك المجوس الثلاثة خلعوا تيجانهم وتركوها فى المزود عند قدمي الطفل. وحينذاك لوحت جباههم الشمس ورياح الصحراء غشيها النور، والأثر الذى تركته الدائرة المزينة بالأحجار الكريمة صارت تاجًا أكثر جمالاً من التيجان المصنوعة فى الشرق... وملوك المجوس الثلاثة رددوا كما لو كان نشيدًا:

ـ إنه هو!... لقد رأينا نجمهُ!

بعد ذلك قاموا ليذهبوا، لأن شعاع الفجر لاح، وحقول بيت لحم خضراء، ويغمرها الندى، تبتسم فى سلام الصباح فى هذه القرية الصغيرة من بين قراها المتناثرة. والطواحين البعيدة تختفى تحت تعريشات الأبواب، والجبال الزرقاء والثلوج فى القمم. تحت هذه الشمس الحبيبة التى تنير فوق الجبال، يأتى عبر الطرق أناس من القرى، راعٍ سوق غنمه باتجاه المروج التى فى أرض جباليا، نساء تغنين عائدات من عند بئر إبراهيم بجرار ملأى؛ شيخ متعب يعزق الفدان لبقراته، حتى تظل تقضم الحشائش داخل السياج، والدخان الأبيض الذى يبدو خارجًا من بين شجرات التين... العبيد السود يجعلون الجمال تبرك ويركبها

ملوك المجوس الثلاثة خالين من كل خـوف اسـتداروا نحـو بلادهم، عندما سعدوا بأغنية صغيرة بـصوت بعيـد لامـرأة عجوز، وطفلة، كانتا جالستين على باب طاحونة، كانتا تنقيـان الذرة من الشوائب التى بها. وكانت هذه هى الأغنيـة البعيـدة بصوتهما:

سيروا أيها الملوك المقدسون

وتحاشوا الطرق

المهتمة بارتكاب الجرائم فيها

والتى أمر بها هيرودس جنوده

الخوف

تلك القشعريرة الطويلة المقلقة التى بدت نــذيرًا للمــوت، القشعريرة الحقيقية كانت من الخوف، والتى شعرت بها لمــرة واحدة.

كانت بعد عدة سنوات، فى ذلك الزمن الجميــل زمــن الأوقات التى يتم فيها تخصيص أراضٍ للصرف منها على ولد، عندما كان الاستعلام يتم عن شخص من طبقة النبلاء ليصبح من رجال الجيش. كنت قد أكملت الحصول علــى شــرائط برتبــة خريج بمدرسة الفرسان الحربية، وفضلت الدخول فى الحــرس الشخصى للملك. لكن أمى أدلت برأيها، وأشارت إلى ما توارثناه فى عائلتنا، لأكون فردًا فى فرقة رماة القنابل اليدويــة التابعــة للملك. لم أذكر بالتأكيد السنوات التى مرت، لكن فى ذلك الحين كان خط من الزغب قد ظهر فى منبت شاربى. واليوم أقتــرب من أن أكون عجوزًا متهالكًا. وقبل دخولى فى ســلك الخدمــة بالفرقة العسكرية، أرادت أمى أن تمنحنــى بركتهــا. والــسيدة الفقيرة عاشت منزوية فى عمق إحدى القرى، حيث كانت بيوت الأشراف التليدة فى الريف. وهناك كانت مستــسلمة لأحوالهــا ومطيعة. وفى الليلة نفسها التى وصلت فيها أرسلت من يبحــث

عن رئيس دير براندیسوکی ليأتى ويتلقى اعترافى فى مصلى الكنيسة الصغيرة لدارنا الريفية. أختاى ماريا إيسابل وماريا فرناندا، اللتان كانتا طفلتين، نزلتا لتقطفا وروداً من الحديقة، وأمى ملأت بها زهريات المذبح وبعد ذلك نادتنى بصوت خفيض لتعطينى كتاب الصلوات الخاص بها، وقالت لى إنها ستعمل لى امتحاناً فى أن أتلو الصلوات بضمير حى:

ـ اذهب إلى المنصة، يا بنى، هناك ستكون تلاوتك أفضل.

المنصة المهيبة الخاصة بالسيد وعلى جانب منها الإنجيل وتتصل بالمكتبة. مصلى الكنيسة الصغيرة كان رطبًا، تسوده العتمة، يرن الصوت فيه.

فوق الأيقونات برز الشعار الممنوح بأمر قضائى من الملوك الكاثوليك إلى السير دى برادومين، بدرو أجيار دى تور، المسمى الكبش وأيضًا الشيخ. ذلك الفارس كان مدفوناً على يمين المذبح. وعلى الضريح تمثال يبتهل من أجل محارب. وقنديل مقصورة الكهنة مضاء ليلاً ونهارًا أمام الأيقونات، ونقش محفور مثل حلية صغيرة لملوك: وعناقيد مذهبة من الكرم الإنجيلى تبدو وهى تقدم مليئة بالفاكهة. القديس الحارس كان ذلك التقى ملك المجوس الذى قدم المر إلى الطفل الإله؛ رداؤه من الحرير

المطرز بالذهب الذى يلمع مع بهاء المتعبد لمعجزة شرقية. نور القنديل بين سلاسل من الفضة. كان بى خوف زاد فى خفقان قلبى، من طائر محبوس كما لو أنه يسعى طائرًا نحو القديس. وأمى أرادت أن تخرج يداها ما تركته تلك الليلة عند قدمى ملك المجوس، الزهريات الممتلئة بالورود، كما لو كانت تقدمه قربانًا من روحها النقية.

بعد ذلك، مصطحبة أختىَّ، ركعت أمام المذبح. أما أنا فمن عند المنصة، فقط سمعت همهمة صوته، الذى يهدى دليلاً مختصرًا للصلوات على مريم؛ لكن عندما أتى الدور على الأطفال فى الرد، سمعت كل الكلمات الطقسية فى الصلاة. العصر أوشك أن ينقضى، والصلوات ترن فى ظلمة سكون المصلى فى الكنيسة الصغيرة، عميقة حزينة، ومهيبة كما لو كانت صدى لآلام المسيح. أما أنا فغفوت على المنصة. وأما الطفلتان فمضتا لتجلسا على درجات سلم المذبح: فساتينهما بيضاء مثل كتان قماش الطقوس الدينية، وفقط تحققت من شبح يصلى تحت قنديل مكان صلاة القساوسة: كانت أمى وبين يديها كتاب مفتوح، وتقرأ ورأسها محنية، وأحيانا تهز الريح الستارة المعلقة على النافذة الكبيرة العالية. وأنا أتطلع من خلالها إلى السماء، والتى كانت بالفعل معتمة ووجه القمر شاحب وفائق الجمال مثل إلهة لها مذبح فى الغابات وفى البحيرات.

أغلقت أمى الكتاب وهى تطلق تنهيدة، وتنادى مرة أخرى على الطفلتين. رأيت مرور الشبحين الأبيضين لهما وعبر مكان صلوات القساوسة لمحتهما بجانب أمى تركعان. نور القنديل يرتعش بوهج واهن فوق اليدين اللتين عادتا تفتحان الكتاب وتسنداه، وفى السكون تلا الصوت بورع وتأنٍ. الطفلتان تنصتان وحلاَّ أربطة شعرهما فانسدل فوق البياض الناصع لفستانيهما ونزل على جانبى الوجه، متشابهتان، حزينتان، مسيحيتان. كنت قد غفوت، وفجأة أفزعتنى صرختا أختىَّ. نظرت فرأيتهما لائذتين بحضن أمى، تصرخان وقد فزعتا، وأمى تأخذهما من يديهما ويهربن هن الثلاثة. نزلت مسرعًا. ومضيت خلفهما، وبقيت مذعورًا من الرعب فى ضريح المحارب، كانت عظام الهيكل العظمى يتصادم بعضها ببعض. وقف شعرى على جبهتى، ومصلى الكنيسة الصغيرة بقى فى السكون الهائل وأخذت أسمع بشكل واضح صوت الدحرجة المخيف للجثة من فوق المخدة الحجرية. امتلأت بخوف كما لم أمتلئ به من قبل أبدًا. لكننى لم أحب أن تعتقد أمى وأختىَّ أننى جبان، وبقيت بلا حركة فى وسط المقصورة المخصصة للكهنة بالقرب من المذبح، بعينين مفتوحتين على الباب الموارب. نور القنديل تذبذب. وأعلاه اهتزت الستارة المعلقة على نافذة كبيرة، والغيوم كانت تعبر فوق وجه القمر، والنجوم كانت تشتعل وتنطفئ مثل

حياتنا. وفجأة، وبعيدًا هناك رن رجع صدى جماعى من كلاب، وموسيقى من أجراس صغيرة. صوت مهيب كنسى نادى:

ــ نحن هنا فى حضرة الوجه البهى!، فى حضرة الكابتن!

لقد كان رئيس دير براندويسو الذى حضر لتناول اعترافى، بعد ذلك سمعت صوت أمى وهى ترتجف وخائفة، واستقبلت بشكل واضح التسابق المرح للكلاب. الصوت المهيب والكنسى أخذ يرتفع ببطء مثل نشيد جريجورى.

ــ الآن نرى ما الذى فعله هو... شيئًا من العالم الآخر لا يمكن أن يكون، بالتأكيد... نحن هنا فى حضرة الوجه البهى! فى حضرة الكابتن!...

ورئيس دير براندويسو، متقدمًا كلابه، كلاب صيد الأرانب البرية، ظهر على باب مصلى الكنيسة الصغيرة:

ــ ما الذى حدث، يا سيد رامى القنابل اليدوية فى حرس الملك؟

وأنا أجبته بصوت مخنوق:

ــ سيدى يا رئيس الدير، لقد سمعت الهيكل العظمى داخل الضريح وهو يرتج...

شق رئيس الدير طريقه داخل الكنيسة الـصغيرة: كـان رجلاً ذا كبرياء ورفيع الشأن. وفى سنوات شبابه كـان أيـضًا رامى قنابل يدوية فى حرس الملك. وصل إلى مكانى، دون أن يلم أطراف أرديته البيضاء واستند بيديه إلى كتفى ليؤكـد لـى، وهو ينظر إلىَّ بوجه ممتقع وينطق بصوت مهيب:

ــ ما لن أستطيع أن أقوله أبدًا إن رئيس دير براندويـسو قد رأى رامى القنابل اليدوية فى حرس الملك وهو يرتجف!

لم يرفع اليد عن كتفى، وبدونا بلا حركة، يتأمـل كلانـا الآخر دون كلام، وفـى ذلـك الـسكون سـمعنا دوران جثـة المحارب. يد رئيس الدير لم ترتعش، وإلـى جوارنـا نـصبت الكلاب آذانها مع أعناقها وشعرها يقف مـن الرعـب، ومـرة أخرى سمعنا دحرجة الجثة من فوق المخدة الحجرية. هزنـى رئيس الدير:

ــ يا سيد يا رامى القنابل اليدوية فى حرس الملك، لا بد من معرفة أهى عفاريت أم أعمال سحر!...

واقترب من الضريح، وأمـسك بـالحلقتين البرونـزيتين المثبتتين بإحدى بلاطات الضريح، تلك التى عليها الكتابة التـى على القبر. واقتربت وأنا أرتجف، ونظر لى رئيس الـدير دون أن ينبس ببنت شفة. وأنا وضعت يدى فوق يده فى واحدة مـن

الحلقتين، وخلعت البلاطة، وببطء وجدنا الحجر، الفجوة، سوداء وباردة، ماثلة أمامنا. ورأيت الجثة المصفرة المتخشبة مازالت تتحرك. مد رئيس الدير إحدى ذراعيه داخل الضريح كى يمسك بجمجمة الجثة. بعد ذلك، وبدون كلمة وبدون إشارة سلمها لى. تلقيتها وأنا أرتجف. كنت فى وسط المقصورة المخصصة لصلوات الكهنة، ونور الفانوس يسقط على يدى؛ وعندما حدقت فى العينين هزتنى بشكل مرعب، كان بداخلها عش ثعابين تخرج من مكمنها وهى ترسل فحيحًا، بينما جمجمة الجثة تتدحرج بشكل خادع وبخفة على كل درجات المكان المخصص لصلوات الكهنة. نظر لى رئيس الدير بعينى المحارب التى تصعق من تحت قلنسوته كما لو من تحت مقدمة خوذة:

ـــ يا سيد يا رامى القنابل اليدوية فى حرس الملك، ما من غفران... أنا لا أغفر للجبناء!

وبوقار متكلف فظ، خرج دون أن يلم أطراف أرديته بذيلها الطويل. الكلمات التى قالها رئيس الدير براندويسو ظلت ترن لزمن طويل فى مسامعى: ومازالت ترن حتى الآن. وربما بسببها عرفت متأخرًا جدًا أن أبتسم للموت مثلما أبتسم لامرأة!...

حلم تراجيدى

كانوا قد تركوا البيت مفتوحًا، وبدا مهجورًا... الطفل كان نائمًا خارجه، فى سلام العصرية التى على وشك الغروب، تحت تعريشة شجرة العنب، وعلى العتبة كانت جالسة تهز المهد بقدمها امرأة عجوز، بينما كانت أصابعها المجعدة تدير فلكة المغزل. وغَزَلَ المرأة العجوز كبة بعد كبة، التيل الأسمر من حقلها. عندها مائة سنة، الشعر مفضض، والعينان فقدتا الرؤية، والذقن دائمة الارتعاش.

الجدة ـــ كم من العمل ينتظرنا فى هذه الدنيا!

عندى سبعة أبناء، وعلى يدىَّ أن تخيِّطا سبعة أكفـــان... الأبناء أُعطيتهم لكى أعرف آلام الولادة، وفيمـــا بعـــد، واحـــدًا فواحدًا ينتزعهم الموت منى عندما يصبحون قادرين علـــى أن يعينونى على السنين. تلك الأعين الحزينة لم تتعب من البكـــاء عليهم، كانوا سبعة ملوك، شبابًا، مؤدبين! أراملهم مصيرهن أن يتزوجن، وأمام بابى أرى مرور موكب زيجاتهن الثانية، وأمام بابى أرى بعد ذلك أفراح التعميد... آه! فقط الحلقة من أحفـــادى أوراق تتساقط مثل أوراق وردة فى مايو... وكـــانوا كثيـــرين، حتى إن أصابعى تتعب من الغزل ليلاً ونهارًا من أجـــل عمـــل

الأقمطة لهم!... كلهم حملوهم عبر هذا الطريق حيث ترسل الضفادع نقيقها، ويغرد البلبل، كم بكت عيناى! وبقيت عمياء أرى مرور صناديقهم البيضاء الملائكية، كم بكت عيناى وكم بها مازال لتبكيه! طوال ثلاث ليالٍ والكلاب تعوى على بابى. وأنا منتظرة أن يترك لى الموت هذا الحفيد الصغير، وأيضًا يأتى من أجله... لقد كان، من بينهم كلهم، الذى أحببته أكثر!... فعندما دفنوا أباه، لم يكن قد وُلد بعد، وعندما دفنوا أمه لم يكن قد عُمِّد... لذلك كان من بينهم كلهم، الذى أحببته أكثر!... لقد أرضعته بمئات من أشكال المعاناة. كان عندى نعجة بيضاء وكانت تقوم برضاعته، لكن الذئاب فى الجبل أكلتها... وحفيدى ذبل مثل زهرة! وحفيدى يموت ببطء شيئًا فشيئًا مثل النجوم المسكينة التى لا تستطيع أن تتأمل طلوع الفجر!

وبكت العجوز فاستيقظ الطفل. انحنت العجوز تنتحب فوق مهد الطفل وبيديها المرتعشتين راحت تتلمس وهى غير متأكدة، تبحث عن الناحية التى فيها رأسه. وفى النهاية ضمت الطفل إلى حضنها وضغطت وجهه بثديها، متيبس وميت، وبكت وتساقطت دموعها خيطًا فخيطًا من الأعين العمياء وبدموع لا تتوقف فى الأخدود الوقور للتجاعيد، غنت لتخفف عن نفسها. غنت الجدة أغنية قديمة قصيرة. وعند سماعها توقفت فى الطريق ثلاث فتيات عذراوات، وكن عائدات من عند النهر. متعبات من

الغسيل والنشر، من طلعة الشمس لغروبها، ملاءات غالية من نسيج الكتان العربى. كن ثلاث أخوات، وصيفات فى قصور الملك، الكبرى اسمها أندارا، والوسطانية اسمها إيسابيلا، والصغرى، ألاعدِّينا.

الكبرى ـ الجدة المسكينة، تغنى لتتغلب على ألمها!

الوسطانية ـ دائمًا تغنى لأن الطفل يبكى!

الصغرى ـ هل تعرفن لم يبكى الطفل؟... لأن تلك النعجة البيضاء التى ترضعه أصيبت فى الجبل، ولهذا بكى الطفل...

الأختان ـ هل رأيته؟... متى حدث أن رأيته؟

الصغرى ـ فى الفجر رأيته نائمًا فى المهد. كان فائق البياض مثل زبد النهر حيث كنا نغسل، وبدا لى أن يدىَّ عندما تلمسه سوف تحمل شيئًا من حياته، كما لو كان شذى يطهرهما.

الأختان ـ والآن عند مرورنا نتوقف لنقبله.

الصغرى ـ وماذا ستعطينا الجدة عندما تسألنا؟ عن نفسى، فهى ستعطينى قماشة مغزولة ومنسوجة بيديها لكى أغسلها لها، وأول ما تبتل سيأخذها التيار...

الوسطانية ــ أما أنا فستعطينى شـلة خـيط، وأول مـا سأنتزعها من شجرة العليق حيث وضعتها لتنشف، وطائر أسود سيحملها بمنقاره...

الصغرى ــ أنا لا أعرف ما الذى سنعطيه لها!...

الوسطانية ــ ولا أنا أيضًا يا أختى.

الكبرى ــ سنمر فى صمت، وبما أنها عمياء فلن ترانا.

الوسطانية ــ سمعها يعرف وقع الخطوات.

الكبرى ــ سنكتم صوت خطواتنا بالسير فى العشب.

الصغرى ــ عيناها تخمنان الظلال.

الكبرى ــ عيناها متعبتان من البكاء.

الوسطانية ــ هيا بنا إذًا، وكلنا سنسير على حافة الطريق، حيث على الحافة تنمو الأعشاب.

الأخوات الثلاثة، أندارا، إيسابيلا، ألاعدّينا، مـضين فـى صمت وسرن على حافة الطريق. رفعت العجوز عينيها للحظة دون أن ترى، بعد ذلك واصلت هدهدة الطفـل والغنـاء لـه. الأخوات الثلاثة عند مرورهن أدرن رءوسـهن. ابتعـدن ثـم اختفين، واحدة وراء الأخرى فى المنعطف. وهناك فـى سـفح الجبل ظهر الراعى، يعبر ببطء، وفى سيره يعتمد على عكازه.

كان شيخًا مسنًا، كل ما يلبسه من الجلود، بلحية بيضاء مهيبـــة، يبدو كواحد من أولئك الرعاة ذوى القلوب الرحيمة الذين أحبوا الطفل يسوع فى حظيرة بيت لحم.

الراعى ـ لقد غربت الشمس بالفعل، لماذا لم تدخلى إلى داخل البيت مع حفيدك؟

الجدة ـ داخل البيت يطوف الموت... ألا تحــس بخــبط الأبواب؟

الراعى ـ إنها الريح التى تأتى مع الليل...

الجدة ـ آه!... أنت تظن أنها الريح!... إنه الموت!...

الراعى ـ والنعجة ألم تظهر؟

الجدة ـ النعجة لم تظهر، ولن تظهر...

الراعى ـ شبابنا ظلوا يبحثون عنها طوال يومين كاملين. لقد تعبوا هم والكلاب...

الجدة ـ والذئب ضحك فى جحره!...

الراعى ـ أنا أيضًا تعبت فى البحث عنها.

الجدة ـ كلنا تعبنا!... فقط الطفل استمر ينــادى عليهــا وسط بكائه، وسيستمر، وسيستمر...

الراعى ــ أنا سأنتقى من بين قطيع أغنامى نعجة مسالمة.

الجدة ــ لن تعثر عليها، فالنعاج المسالمة تأكلها الذئاب.

الراعى ــ قطيعى تحرسه ثلاثة كلاب تسهر عليه. عندما أعود إلى الجبل، سأهدى الطفل نعجة مع خروفها الصغير الأبيض.

الجدة ــ آه كم أخاف أن يأتى الأمل ويدفن فى قلبى كما فى عش قديم مهجور تحت طنف السقف!...

الراعى ــ الأمل طائر وهو الذى يغنى لكل القلوب.

الجدة ــ أنا واحدة فقيرة لا أملك ما يسرنى، لكن طالما بقيت لى أصابعى تحس، فإنها ستغزل مقابل هديتك غزلاً بقدر ما تعطيه النعجة. لكن حفيدى لن يعيش!...

ثلاث ليال مرت منذ أخذت الكلاب تعوى. عندما وجدته فى المهد وأحسست برفيف أجنحته، أجنحة الملاك كما لو كان يريد تعلم الطيران...

عاود الطفل البكاء، لكن بالشكل الذى يبكى به طفل حديث الولادة، وكل مرة يبدو أكثر خفوتًا، وبلا عزاء. وعاودت جدته هدهدته بالأغنية القديمة القصيرة. والراعى أخذ يبتعد شيئًا

فشيئًا، فسار فى حقل أخضر، حيث كن يلعبن بركوب العجلة. غنى المقطوعة الصغيرة للأطفال، الأغنية القديمة القصيرة نفسها التى غنتها الجدة بقلب كسير، طفلات بجونلات ممتلئة بالزهور اقتربن من العجوز التى لم تحس بهن، وواصلن هدهدة حفيدها. والطفلات رأين فى صمت، وهن يبتسمن، الجدة وهى تكف عن الغناء، وترقد الحفيد فى المهد.

الطفلات ــ أهو نام يا جدة؟

الجدة ــ نعم هو نام.

الطفلات ــ ياالبياض لونه!... لكنه ليس نائمًا، يا جدة!... له عينان مفتوحتان... يبدو أنه يرى شيئًا لم يسبق أن رآه...

الجدة ــ شيئًا لم يسبق أن رآه! إنها الحياة الأخرى!...

الطفلات ــ إنه يبتسم ويغمض عينيه...

الجدة ــ بعينيه المغمضتين يواصل رؤية ما سبق أن رآه نفسه. إنها هى روحه الطاهرة التى رأت.

الطفلات ــ إنه يبتسم...! لماذا يبتسم وعيناه مغمضتان؟...

الجدة ــ يبتسم للملائكة.

ريح عاصفة هبت على الشعر المعصوب دون أن يتموج. إنها ريح باردة لدرجة أنها تجعل العيون تدمع، والحفيد ظل دون حركة فى المهد. أما الطفلات فابتعدن شاحبات خائفات وببطء وفى صمت ممسكات بأيديهن.

الجدة ـ أين أنتن؟ قلن لى: أمازال يبتسم؟

الطفلات ـ لا، لم يعد يبتسم...

الجدة ـ أين أنتن؟

الطفلات ـ لقد مضينا بالفعل..

فككن أيديهن وانصرفن سريعًا. ومن بعيد سُمع صوت جرس صغير، والجدة انحنت تتنصت... إنها النعجة الأليفة العائدة كى ترضع الطفل، وصلت كما الدون الذى أرسله ملك المجوس، بضروع مليئة بالخير. تعرفت إلى الأماكن وتقترب بثغاء عذب، حاملة خصلاً من الصوف الممشط بنباتات الوزال والعليق الجبلية. بسطت العجوز فوق المهد راحتيها كى ترفع الطفل، لكن اليدين المسكينتين المجعدتين المرتجفتين والشائختين، وجدتا أن الطفل قد تيبس.

الجدة ـ والآن أنت فارقتنى، يا حفيدى! أى وحدة تركتنى فيها! أوه! لماذا لم تطبع روحك، روح الملاك قبلة على فمى وتأخذ معها روحى المثقلة بالآلام؟... أنت كنت مثل غصن

وردات بيضاء فى باقة الورد التـــى تـــزين التـــابوت الحـــزين لحياتى... لو مددت لى يديك، لكنت الأجنحة البريئة للبلابل التى تغنى فى السماء للآباء القديسين، لو قبلنى فمك فستكون نافـــذة ممتلئة بنور الشمس التى تتفتح على الليل... وكنت أنتِ كشمعة كبيرةٍ من شمع أبيض فى هذه الباقة المعتمة لحياتى!... أعد لى حفيدى أيها الموت الأسود!... أعد لى حفيدى!...

وبذراعيها الممدودين، دخلت بيتهـــا المهجـــور وخلفهـــا النعجة. وتحت السقف تعالى صوت صرخاتها. والـــريح هبـــت لتخبط الأبواب.

بياتريث

الفصل الأول

كانت حديقة ضخمة تحيط بالقصر، يسودها جو نبيل يساعد على استجماع الأفكار، وبين أحواض الريحان الذى تتجدد شجيراته جيلاً بعد جيل، يسطع البياض الناصع لتماثيل آلهة، مسكينة التماثيل المشوهة!... أشجار الأرز وأشجار الغار تنحنى فى جلال يظلله الجزء فوق النافورات المهجورة: نصف إله بحرى، نصفه إنسان ونصفه سمكة مغطى بأوراق الشجر، يتدفق الماء فائرًا بين وقت وآخر من ضحكته الخيالية، والمياه تترجرج فى الظل، بنبض حياة خفية مسحورة.

والكونتيسة تقريبًا لم تخرج أبدًا من القصر، تطل متأملة الحديقة من بلكونة غرفة نومها المبنية بأسلوب معمارى إسبانى مقلد لأساليب الصياغ، وبابتسامتها المحببة، ابتسامة كريمات الأصل الورعات، طلبت من فراى أنخيل، قسيس الكنيسة الخاصة بالقصر، أن يقطف الورود من أجل مذبح المصلى. كانت الكونتيسة شديدة التقوى. تحيا مثل رئيسة دير راهبات منزوية فى الحجرات الحزينة التى يسودها الصمت بقصرها. بعينين ملتفتتين إلى الماضى: ذلك الماضى الذى تتكاثر فيه أساطير ملوك الجيوش وشعارات الأسر! كارلوتا إيلينا أجيار إى بولانيو، كونتيسة دى بورتادى، ولقد تعلمت عندما كانت طفلة

كيف تتهجى التقاليد القديمة الخاصة بالنبلاء. وهى تنحدر من سلالة بيت باربانثون، واحد من البيوت الأكثر عراقة، والمشهور بعظمائه، حسبما أثبتت أحكام منح ألقاب الشرف، وخطابات بها موقعة من سمو الملك دون كارلوس الأول، والكونتيسة تحتفظ بها، كما الآثار الدينية المقدسة، تلك الأوراق ذات الأثر العظيم على من يحوزها وما تمنحه من عظمة، فى صندوق مكسو بالقطيفة الحمراء القرمزية، التى منذ قرون مضت وهى مكتوبة بنوع من أحرف الطباعة كذكرى بحروفها الكبيرة المزينة بالزهور، وحواشيه المفرطة فى زينتها، والصور التى لحيوان خرافى نصفه الأعلى نسر ونصفه الأسفل أسد الخاصّة بشعارات المدن والأسر، ورموز أشرافها، وريشاتها التى تزين بها أغطية الرأس، وشعاراتها المقسمة إلى ستة عشر قسمًا مرسومة بصور مصغرة ملونة بعبق رهبانى، بالألوان الخاصة بشعارات المدن والأسر التى تتكون من: الأحمر، والأزرق، والذهبى، والفضى، والأسود، والأخضر.

كانت الكونتيسة هى الابنة الوحيدة للشخصية الشهيرة ماركيز دى باربانثون، الذى كثيرًا ما كان يظهر فى الصورة فى الحروب الكارلية، وعمل السلام بعد خيانة برجارا ــ وأبدًا لم يطرق بابه المخلصون له للعب دور آخر فى الاتفاقية ــ هاجر المركيز دى باربانثون إلى روما. ومثلما كانت تلك الأزمنة هى الأزمنة الجميلة للبابا الملك، الفارس الإسبانى كان واحدًا من الوصفاء الأشراف الأجانب للملك مع تولى منصب أمير فى

الفاتيكان. وخلال أعوام طويلة كان يحمل على كتفيه العباءة الزرقاء للحراس النبلاء. وقد أظهر بسالته قميص مشرط ليرى من تحته قميص غيره من القطيفة القطنية الناعمة. وهو الطقم نفسه لرجل جميل الوجه معتدل القد الذى رسم به البارع جدًا سانثيو للجميل جدًا ثيسار بورجيا!

ألقاب الماركيز دى باربانثون، كونت دى جواندارين وسنيور دى جوا سقطت مع الفارس الطيب دون فرانشيسكو خابيير أجياراى بيندانيا، الذى لعنه فى وصيته واتهمه بالغطرسة المخلص الكاستيانى، وكل ذريته، لو كان من بينها واحد فقط، والذى يكون خائنًا، مغرورًا، يدفع ضريبة ربع سنوية عوضًا عن الاشتراك فى الحرب مقابل عدد معين من الجنود أيًا كان السيد الملك الذى لم يكن ليمنحه الرب غفرانه. ابنته أعجبت وهى تبكى من شهامة سموه من هذه اللعنة التى تصعد من عمق ضريح، واحترمت المشيئة البابوية، وتركت فاقدة الألقاب التى شرفت عشرين من أجدادها. لكنها تتنهد دائمًا من أجل لقب ماركيز/ ولاية أمير الثغر دى باربانثون. ولكى تتعزى اعتادت القراءة، عندما تكون عيناها أقل إجهادًا، ونبل راهب أرمينتاريث حيث يحكون عن أصول مثل هذا النسب المجيد. ولو أنها بشكل متأخر جدًا حازت على لقب كونتيسة، فقد كان ذلك بعفو بابوى.

الفصل الثانى

اليد المعذبة النحيلة لخادم كنيسة القصر، رفعت الستارة الكبيرة بشعار الأسرة، والتى هى من الحرير الدمشقى القرمزى.

ـ أتأذنين لى بالدخول يا سيدتى الكونتيسة؟

ـ تقدم يا فراى أنخيل.

دخل الخادم الكنيسة. كان عجوزًا طويلاً وناشفًا، وله مشية منضبطة وعسكرية واتصل بالباربانثون، حيث حصل على امتيازات ناظر الوقف، ما إن تم نزوله على باب القصر. ومازال لم يخلع المهمازين. هناك فى عمق حجرة استقبال السيدات، الكونتيسة الرقيقة تتهدت مسترخية على الكنبة المكسوة بالحرير الدمشقى الأحمر. بالكاد رآها داخل الصالة. حل الليل شتويًا مكفهرًا. والكونتيسة صلَّت بصوت خفيض، وأصابعها زنابق بيضاء سجينة قفازات تبقى الأصابع عارية، مطرزة بالدانتيلا، مرت بتمهل حبات مسبحة جىء بها من القدس، صرخات طويلة حادة وصلت إلى الصالون من عمق سكون القصر: رجت الظلمة، ووصلت لسكون يطلق نبضات مثل أجنحة خفاش شيطانى... فراى أنخيل رسم علامة الصليب:

ـ استرنا يا رب! ما من شك أن الشيطان يواصل تعذيب الآنسة بياتريث... أليس كذلك؟

أنهت الكونتيسة صلاتها، ورسمت الصليب، بالصليب الذى بالمسبحة والمرسوم عليه المسيح مصلوبًا، وتنهدت:

ـ مسكينة ابنتى! الشيطان استولى عليها... بالنسبة لى فإنه يصيبنى بالفزع أن أسمعها تصرخ، وأراها وهى تتقلب مثل سلماندرا فى النار... ولقد قالوا لى فى إحدى المصحات بأن علاجها يوجد عند السلتيين وسيكون من الضرورى الاستنجاد بهم. وهم يحكون بأنهم فعلوا معجزات.

وفراى أنخيل، متحيرًا، حرك رأسه المعتمدة فى سلك الأكليروس:

ـ نعم سيفعلون ذلك، لكنهم يضعون يدهم على الأرض لعشرين سنة.

ـ أأمر بتجهيز العربة، يا فراى أنخيل.

ـ مستحيل، فى هذه الطرق، يا سيدتى.

ـ ستحمل على محفة.

ـ لكنه صعب فقط، وصعب جدًا! المصحة قضى عليها من قرن، لقد صارت أثرًا... وظل ينظر مفكرًا إلى الكونتيسة،

خادم الكنيسة لزم الصمت: كان رجلاً عجوزًا بعينين عابستين، والصورة الجانبية لوجهه تظهره وجهًا ثعبانيًا، لا يتحرك كأنه منحوت من الجرانيت. يذكر هؤلاء الأساقفة (المحاربين) بأنهم فى الكاتدرائيات نائمون أو يصلون فى ظل قوس ضريحى. وفراى أنخيل لا بد أنه كان واحدًا من هؤلاء الطائشين المنبوذين فى سلك الأكليروس الذين يسرقون الأموال من كنائسهم لتقديمها مساعدة للعصابة. سنوات بعد ذلك، انتهت الحرب بالفعل، ومازال يواصل إقامة قداسه من أجل روح ثومالا كارِّيجى. والسيدة، بيديها على الصليب تتهدت. صرخات بياتريث تصل إلى الصالون فى هبات جنونية، وعواء مسعور. المسبحة ترتعش بين الأصابع الساجية للكونتيسة التى فى انتحابها، همست تقريبًا بدون صوت:

ـ مسكينة ابنتى! مسكينة ابنتى!

وفراى أنخيل سأل:

ـ وهل لن تكون وحدها؟

أغمضت الكونتيسة عينيها، ببطء، فى الوقت نفسه الذى بإشارة مفعمة بالإعياء، أحنت رأسها على وسائد الكنبة:

ـ ستكون مع عمتى الجنرالة والسيد المصلح لتقبل توبتها، والذى سيرقيها، ويتلو التعاويذ عليها.

ـــ آه! ولكن هل هو موجود هنا الـــسيد المـــصلح الـــذى سيتقبل توبتها.

والكونتيسة أجابته وهى حزينة:

ـــ عمتى أتت به.

وفراى أنخيل قام واقفًا على قدميه بفزع غريب:

ـــ ما الذى قاله السيد المصلح وتقبل التوبة؟

ـــ أنا لم أره حتى الآن.

ـــ هل مضى وقت طويل منذ حضوره إلى هنا؟

ـــ ولا هذا أيضًا أعرفه يا فراى أنخيل.

ـــ ألا تعرفينه يا سيدتى الكونتيسة؟

ـــ لا... لقد قضيت وقت العـــصر كلـــه فـــى الكنيـــسة الصغيرة... اليوم بدأت صلوات التاسوع (تعبُّد يستمر ٩ أيـــام) لعذراء برادومين، ولو منَّت على ابنتى بالشفاء، فـــسأقدم لهـــا كهدية عقد اللآلئ والأقراط التى آلت إلىَّ من جدتى المـــاركيزة دى بلربانثون.

استمع إليها فراى أنخيل وقد اجتاحه إعصار من القلـــق. وعيناه العابستان تحت حاجبيه، بدتا كعينى حيوان جبلى مفترس مغتاظتين. سكتت السيدة وتنهدت. وخادم الكنيسة بقى واقفًا:

ــ سيدتى الكونتيسة. أنا ذاهب لآمر بإسراج البغل. وهذه الليلة سأكون عند السلتيين ولو ترتب علـــى ذلــك نقلهـــا إلـــى المصحة، فلا بد أن يتم هذا فى تكتم شديد. وحوالى الفجر يمكن أن نكون هنا.

وأدارت الكونتيسة نحو السماء عينيها اللتين أحاطت بهما هالات زرقاء ضاربة للسواد:

ــ يفعل الله ما يشاء!

والسيدة النبيلة لفت المسبحة بـــين أصـــابعها الـــشاحبة، ورفعت قامتها حتى تعود للناحية التى بها ابنتها. قط كان نائمًـــا على الكنبة، ففر إلى الأرض، مقوسًا عمـــوده الفقـــرى وظـــل يموء... فراى أنخيل سبقه: واليد الـــسوداء الـــضامرة لخـــادم الكنيسة، جذب الـــستارة الكبيـــرة المزينـــة بـــشعار الأســـرة. والكونتيسة مرت وقد غضت بصرها فلم تتمكن مـــن أن تـــرى كيف كانت تلك اليد ترتعش.

الفصل الثالث

بدت بياتريث مخلوقة ميتة: برموش عينيها المغمضة دون أن تكون مقفلة تمامًا، والخدين شديدى الشحوب، والذراعين الممدودين بطول الجسم. راقدة فوق السرير الخشبى العتيق الذى وصل إلى الكونتيسة بواسطة فراى دييجو أجيار، أسقف البيت النبيل دى باربانثون ممنوحًا بقرار قديس. غرفة النوم التى لبياتريث كانت صالة كبيرة، أرضيتها من خشب الكستناء، معتمة وكئيبة. لها نوافذ ضيقة بقاعدة حيث تهدل الحمامات، وأبواب لها طابع أبواب الأديرة، من طراز قديم من خشب معشق ينفتح وينغلق فى أناة، وترابيس رقاصة فى حديد مزخرف بشكل وردات. السيد بينيدتينثاريو وميسيا كارلوتا، والجنرالا، انسحبوا إلى غرفة النوم المنعزلة تمامًا وهم يتحدثون بصوت خفيض جدًا. الكاهن طوى عباءته الكنسية. صدغاه حليقان، وجبهته عاجية، تلمع فى العتمة. يبحث عن الكلمات كما لو كان فى كتاب تعليم أصول الاعتراف، واضعًا أقصى العناية فيما يقوله ومستخدمًا دورات طويلة بالنسبة له. ميسيا كارلوتا استمعت إليه بانتباه، وبين أصابعها، الجافة كما لو كانت لمومياء، تهتز الإبر الخشبية والحركة السريعة لشغلها بالإبرة

لجوربها الطويل. كانت شاحبة، ودون أن تقاطع السيد المصلح، من وقت لآخر، كانت تكرر بنفس مكسورة:

ـــ طفلة مسكينة! طفلة مسكينة!

وكلما كانت بياتريث تنتحب كانت تتنهد، نهـضت كـي تعزيها. بعد أن عادت إلى جوار الكاهن، الذى بيديه المتعاطفتين اللتين كانتا تقريبًا مختبئتين بين طيات ردائه الكنسى، بدا غارقًا فى تفكير خطير. والمبشرة كارلوتا، التى كانت دائمًا سيدة تتميز بقوة التحمل، مسحت عينيها ولم تكن تملك إخفاء ألمها. أما السيد المصلح بينيدتينثاريو فقد سألها بصوت خفيض:

ـــ متى سيصل ذلك الراهب؟

ـــ ربما يكون قد وصل.

ـــ مسكينة الكونتيسة! ماذا سيفعل؟

ـــ من يدرى!

ـــ هل لا تشك هى فى أى شىء؟

ـــ لا تستطيع أن تشك!...

ـــ إنه أشد إيلامًا لو أن لديها ما تقوله له...

وصمت الاثنان... وظلت بياتريث تبكى، وبعد ذلك بقليل دخلت الكونتيسة، التى حاولت جاهدة أن تبدو فى حالة من السكينة: وصلت حيث تضع بياتريث رأسها، انحنت فى صمت وقبلت الجبين اليابس للطفلة.

وبيدين متقاطعتين على شكل الصليب، متألمة، وعيناها شاخصتان، ظلت لوقت طويل تتأمل تلك الملامح الحبيبة. إنها الكونتيسة التى مازالت جميلة حتى الآن، سامقة القامة، ووجه شاهق البياض بعينين زرقاوين ورموش شقراء، من شقرة وردية، والتى تحتفظ بلمسة خفيفة من ظل فى هاتين الوجنتين الحزينتين العاليتين المتكبرتين. والسيد المصلح اقترب:

ــ كونتيسة، أنا فى حاجة للكلام مع ذلك الفراى أنخيل.

صوت الكاهن، صوت عادى ودود وهامس، لكنه كان مشحونًا بصرامة. والكونتيسة التفتت مندهشة:

ــ فراى أنخيل ليس موجودًا بالقصر، سيدى المصلح بينيدتينثاريو.

وعيناها الزرقاوان، فقدتا بريقهما من الدموع، تساءلتا بإلحاح، فى الوقت نفسه الذى كانت ترتعش فيه فوق الشفتين الذابلتين ابتسامة محببة وبصيرة بالعواقب من سيدة تقية. وميسيا

كارلوتا، التى كانت عند رأس بياتريث اقتربت منهما وبصوت خافت:

ـ لا تتكلما حضراتكما هنا.... كارلوتا تقدرانهما تقدران....

ـ يا إلهى، ما الذى يجرى؟

ـ اهدئى!

وفى الوقت نفسه قامت الكونتيسة وخرجت من الغرفة. والسيد المصلح بينيدتينثاريو بارك بدون صوت بياتريث. وبدون أن يمسك بردائه ذى الذيل الطويل، خرج وراءها. وميسيا كارلوتا بقيت على عتبة باب الغرفة: لا تتحرك وهى تمسح دموعها، تتأمل من هناك كما لو أن الكونتيسة والمصلح بينيدتينثاريو ابتعدا فى ممر طويل. بعد ذلك، رسمت علامة الصليب. وعادت بجانب بياتريث، ووضعت يدها ذات التجاعيد فوق الجبين الأملس للطفلة:

ـ ابنتى الصغيرة، لا ترتجفى!... لا تخافى!...

ركَّبت على أنفها نظارة أنفية مزينة بقطع من الصدف، وفتحت كتاب الصلوات، فى الموضع الذى حددته بوضع الشريط الحريرى الأزرق، كانت مازالت دائخة وبدأت تتلو بصوت مرتفع:

صلاة

أوه أيتها الحزينة المتألمة يا مريم العذراء، سيدتى، والتى تواصل الآثار المقدمة لحبيبك الابن، وسيدى يسوع المسيح، مصلوب على جبل الجلجثة، حيث الروح المقدمة فداءً تحب أن تهديهم، مثلما جرى فى جبل المر، وأنت مسحت أيتها الأم الخطايا للجنس البشرى! امنحينى، أيتها العذراء مريم، بحق البركة السماوية، العفو عن الخطاة، وأبعدى عن روحى الأرواح الشريرة التى تحاصرها؛ ذلك لأن لك القدرة على أن تطردى الشياطين من الأجساد والأرواح. أنا منتظرة، يا مريم العذراء أن تمنحينى ما أطلبه منك، نعم لأكون كذلك من أجل مجدك الأعظم، وخلاصى الأبدى. آمين.

ورددت بياتريث:

ـــ آمين!

عينا القط، اللتان كانتا تشعان بجوار المجمرة، وتـضيئان في الظلام، والمجمرة الكبيرة من النحاس الأصـفر مازالـت تحتفظ بين الرماد ببعض الجمرات الموشكة على الانطفاء. وفي العمق من الغرفة بدا واضحًا بالكاد من الصالون، فوق مجموعة الستائر المخملية، يلمع معدن بشعارات الشرف المطرزة، جسر فضي وتسعة أقراص ذهبية، والتي منحها الدون إنريكي الثالث بالأسلحة إلى السيد دي باربانثون، بدرو أجيار دي تور، الملقب بالكبش وأيضًا الشيخ. الورود الذابلة تشيع عطرها في الظلام، وتتساقط أوراقها خفية في زهريات عتيقة من البورسلين تحاكي أيدي مفتوحة. وخادم قام بإشعال الشمعدانات الفضية التي كانت موضوعة فوق المناضد المستندة إلى الحوائط (كونسولات) بعد ذلك دخلت الكونتيسة ومعها المصلح بينيـدتينثاريو الـصالون. وبإشارة دالة ونبيلة من السيدة، طلبت من الرجـل الكنـسي أن يجلس على الكنبة. ومرتجفة وبنفس مكسورة مـن الهـواجس السوداء، تركت نفسها لتسقط في المقعد، وخادم الكنيسة بصوت كاهن ممسوح بالزيت المقدس وبطريقة احتفالية أخذ يقول لها:

ـ إنها ضربة مروعة، يا كونتيسة...

والسيدة تنهدت:

ـــ مروعة، يا سيد بينيدتينثاريو!

وبقيا صامتين. والكونتيسة جففت الدموع التى أغرورقت فى حدقتيها بزرقتهما العميقة. وبعد أن مرت لحظة همست، وكشف صوتها عن تطلع كانت تُحاول بالكاد أن تخفيه:

ـــ أخشى جدًا ما سوف تقوله لى حضرتك!

والكاهن أحنى ببطء جبينه العارى الشاحب، الذى بدا متمرسًا بالتأملات الدينية الجليلة:

ـــ إنه من الضرورى الامتثال لمشيئة الرب!

ـــ إنه من الضرورى... ولكن ما الذى فعلته أنا لأستحق التعرض لتجربة بالغة القسوة مثل هذه؟

ـــ من الذى يعرف، إلى أى مدىً بلغت به ذنوبه! وما هى تدابير الرب، نحن لا نعلمها.

والكونتيسة تقاطعت يداها وهى متألمة:

ـــ انظر إلى ابنتى بياتريث، محرومة من الرحمة، وممسوسة من الشيطان... والكاهن قاطعها:

ـ لا، هذه الطفلة ليست ممسوسة من الشيطان!... لقد مضت علىَّ عشرون سنة وأنا مصلح ومتقبل للتوبة فى كاتدرائيتنا، والتزام أدبى شديد الإيلام، شديد الغرابة، لم أره من قبل الاعتراف من هذه الطفلة المريضة، مازال يخالجنى!...

رفعت الكونتيسة ناظريها إلى السماء:

ـ إنها معترفة! وبلا شك أن الرب إلهنا يريد أن يعيد لها نعمته. إننى أعانى كلما أرى ابنتى المسكينة ضجرة من كل أعمال الشيطان! لأنها، قبل ذلك، كانت ممسوسة، أيها السيد المصلح.

ـ لا يا كونتيسة، إنها لم تكن ممسوسة أبدًا.

ابتسمت الكونتيسة ابتسامة حزينة، وانحنت تبحث عن منديلها، الذى ضاع منها. السيد المصلح التقطه من فوق السجادة، كان ناعمًا، دنيويًا مشبعًا برائحة البخور واللُّبْنى (نبات عطرى)، كالقربان بالكأس المقدس.

ـ ها هو هنا، يا كونتيسة.

ـ شكرًا يا سيدى المصلح.

ابتسم الكاهن ابتسامة عابرة رقيقة. لفت نظرها إليه من خلال لهب الشموع المنعكس على نظارته الذهبية. كان طويلاً

ومحنيًا، بيد أسقف ووجه يسوع. وله جبهة قاتمة لا بريق فيها. والخدان حزينان، النظرة محببة، الفم غائر، مفعم بالذكاء.

تذكرت صورة الكاردينال كوسمو دى فيرّارا التى رسمها له البيروخينو. وبعد وقفة قصيرة واصل:

ـ هذا القصر، يا سيدتى، يستضيف فيه كاهنًا/ قسيسًا غير طاهر، ابن شيطان...

والكونتيسة نظرت إليه مذعورة:

ـ فراى أنخيل؟

المصلح أكد بأسف وهو يحنى رأسه المغطاة بقلنسوة رجال الدين الكاثوليك الحمراء، براءة المجمع الكنسى من هذا الرجل ذى المنصب الأرفع فى المجمع الكنسى:

ـ هذا ما بينه الاعتراف من بياتريث. بالتخويف والإفراط فى استعمال السطوة!...

الكونتيسة غطت وجهها بيديها، اللتين تبدوان من الشمع، وصرخة لم تخرج من شفتيها... والمصلح ارتعش فى صمت. بعد ذلك واصل:

ـ لقد أرادت بياتريث أن أكون أنا من ينبه أمها. وكان واجبى أن أمتثل لرجائها. واجب يدعو إلى الأسف يا كونتيسة.

المخلوقة المسكينة، فى ألمها وحيائها، لم تكن تجرؤ أبدًا. يأسها من أن تعترف لى بخطيئتها كان هائلاً جدًا، حتى وصل إلى أن أدخل الخوف إلى نفسى. وهى تعتقد أن روحها هالكة، ضائعة للأبد!

والكونتيسة دون أن تكشف عن وجهها، وبصوت مبحوح من النحيب، صاحت:

ــ لا بد أن أقتل القسيس! لا بد أن أقتله! وأما عن ابنتى فلن أراها بعد ذلك!

الكاهن تمالك نفسه فى موقفه المفعم بالصرامة:

ــ يا كونتيسة، العقاب يجب أن يترك للرب، أما بالنسبة إلى هذه الطفلة، فلا كلمة واحدة تسبب لها المعاناة، ولا نظرة يمكن أن تخجلها.

ولبثت ضائقة الصدر، متخشبة، أشبه بأم أمام ضريح مفتوح لأبنائها. وهناك فى الخارج أجراس أحد الأديرة كانت تقرع بفرح، معلنة التاسوع الذى تقيمه الراهبات طوال السنين الماضية فى صلوات ملائكية. وفى الصالون، كانت الشموع تبكى فوق الشمعدانات المعلقة الذهبية المعلقة على الحوائط، وعلى حافة الموقد الذى خبت النار فيه، ينام القط ويرسل هريره المتواصل.

الفصل الخامس

صرخات بياتريث تعالت وسُمعت أصداؤها في أنحاء القصر كلها... وأخذت الكونتيسة ترتجف عند سماعها ذلك البكاء الذى يثير الخوف فى سكون الليل، ويجلب الضيق. والطفلة، بأعين شاردة، وشعر محلولة ضفائره فوق الكتفين، كانت تتلوى: رأسها الشقراء المجدلية كانت تتخبط فى الأرضية الخشبية، ومن جبينها المتخشب الضائق تدفق خيط من الدم. تتلوى تحت النظرة الميتة الحادة للمسيح: مسيح من الأبنوس والعاج، بشعر آدمى، وبقدمين أحسن صنعهما مضاءتين بمصباح فضى يحتضر نوره. استحضرت بياتريث ذكرى تلك الأميرات البيضاوات الأسطوريات القديسات ذوات الثلاثة عشر عامًا الممسوسات بالشياطين. وبعد دخول الكونتيسة، أضيف إليها مع الضياع، الوجه الرمادى، والشفاه المرتجفة، كورود تتساقط أوراقها، وشعرها يغطى بالكاد البياض الناصع للنهدين:

ـــ ماما! ماما! سامحينى!

ومدت إليها اليدين، اللتين بديتا حمامتين بيضاوين مرتبكتين. والكونتيسة تمنت أن تتلقاها بين ذراعيها:

ـــ نعم يا ابنتى نعم! استريحى الآن.

تلفتت بياتريث بعينين مرعوبتين، تحدقان فى السرير الذى تعمُّه الفوضى:

ـــ آى ها هو الشيطان! ها هو الشيطان نائم! يـأتى كـل ليلة. والآن ها هو وقد جاء ورفع عن كتفى وشاحى الرهبـانى. وقد أخذ يعض النهدين. وأنا صرخت، صرخت، لكن لم يسمعنى أحد. دائمًا كان يعض النهدين، وهما يحرقانى.

وبياتريث أرته لأمها، بياض النهد والندبة الرمادية، حيث رأت بنفسها الأثر الأسود الذى خلفته الشفتان للرجـل الـشرير عندما قبلتاه. وشاحبة كمية أمسكت الكونتيسة بالصليب الـذى عليه صورة المسيح مصلوبًا ووضعته فوق المخدات:

ـــ لا تخافى، يا ابنتى، سيدنا يسوع المسيح يـسهر الآن عليكِ!

ـــ لا، لا!

وتعلقت بياتريث برقبة أمها. والكونتيسة ركعـت علـى الأرض. وبين يديها احتفظت بالقدمين العاريتين للطفلة، كما لو كانتا طائرين مريضين متجمدين. وخبأت بياتريث جبينها فـى كتف أمها، وهى تبكى:

ـ ماما حبيبتى، فى ليلة نزلت إلى المصلى لكى أعترف... وناديتكِ وأنا أصرخ... وأنتِ لم تسمعينى... بعد ذلك كان يأتى كل ليلة، وأنا محكوم علىَّ بالهلاك الأبدى...

ـ اهدئى، يا ابنتى! لا تتذكرى!...

والاثنتان انخرطتا فى البكاء معًا فى صمت، بينما فوق الباب ذى التعاشيق قديمة الطراز من الحديد على شكل ورود، يهدل طائرا القُمْرِىِّ اللذين رباهما فراى أنخيل من أجل بياتريث... والطفلة برأسها المسنودة على كتف أمها، ترتجف وتتنهد وتنام شيئًا فشيئًا. وقمر الشتاء يتألق فى النافذة العلوية للنوافذ ونوره الأبيض ينتشر فى الحجرة. وفى الخارج يسمع صوت الريح، التى تهز الأشجار فى الجنينة، وخرير ماء بإحدى النافورات.

أرقدت الكونتيسة بياتريث على الكنبة، وهى صامتة، ممتلئة بحرص محب، ثم غطتها بغطاء سرير من الدمقس القرمزى، دمقس عتيق، والذى يبدو أن فيه شيئًا من جو الطقوس . وبياتريث تتنهدت دون أن تفتح عينيها. ويداها بقيتا فوق الغطاء. كانتا شاحبتين، بيضاوتين، خياليتين، شفافتين فى النور: الشرايين الزرقاء ترسمان/ تشكلان وردة حلم. وبعينين

مليئتين بالدموع، احتلت الكونتيسة مقعدًا كان بالقرب منها. كانت مثقلة بحزن بالغ، والذى جعلها تقريبًا غير قادرة على التفكير، وصلَّت بشكل مشوش، والنوم يغالبها مع سطوع النور على قدمى المسيح، فى كأس من الفضة. والآن ومتأخرة جدًا دخلت ميسيا كارلوتا وهى تستند على عكازها، وبنظارة أنفية تهتز فوق أرنبة أنفها. رفعت الكونتيسة إصبعًا على شفتيها مشيرة لها بأن بياتريث نائمة، والعجوز اقتربت دون أن يصدر عنها صوت، سائرة على مهل وبتعب:

ـ أخيرًا استراحت!

ـ مسكينة الروح الطاهرة!

جلست ووضعت عكازها على ذراعى المقعد. والسيدتان حافظتا على السكون. وعلى شراعة الباب واصل طائرا القُمْرِىِّ هديلهما.

الفصل السادس

فى منتصف الليل وصلت المعالِجة (بالرقى والتعاويذ) من السلتيين، يقودها اثنان من أحفادها أصبحا الآن عجوزين، فى عربة تجرها الثيران، مستلقية فوق القش. والكونتيسة رتبت خادمين للصعود بها، دخلت وهى تصلى صلاة الصلمودية للدعاء بالصحة والصلوات. كانت طاعنة فى السن بملامح ممسوحة مثل الميداليات القديمة، والعينان خضراوان، من الخضار المؤذى فى أعمال السحر، والذى للنافورات المهجورة، حيث مجتمع الساحرات. السيدة النبيلة خرجت لتستقبلها من عند الباب، وارتعش صوتها وهى تسأل الخدم:

ــ ألم تروا إن جاء أيضًا فراى أنخيل؟

وواحدة من الخدم أجابت المعالجة بأعمال السحر باستسلام العجائز اللواتى يتذكرن زمن نظار الوقف:

ــ سيدتى الكونتيسة، أنا وحدى التى أتيت، دون أن يكون معى سوى الرب.

ــ لكن ألم يذهب إلى السلتيين قسيس للتنبيه عليكم لكى تأتوا ؟

ـ هاتان العينان الحزينتان لم تريا أحدًا.

والخدم تركوا المعالِجة بأعمـال الـسحر فـى كرسـى. ارتعشت بياتريث: العينان وحشان، مفتوحتان كما لو على جحيم من الرعب والأمل. والمعالِجة بأعمال السحر ضحكت ضـحكة حادة/ جافة من فمها الخالى من الأسنان.

ـ انظروا كم هى منتبهة هذه الوردة البيضاء! لم ترفـع عينها عنى.

الكونتيسة التى ظهرت واقفة فى وسط الحجرة، سألت:

ـ لكن لم يقع نظر أحد منكم على القسيس؟

ـ لا أحد يا سيدتى.

ـ من الذى نبه عليكم؟

ـ لم يكن أحد من هذا العالم، بالأمس العصر بقيت نائمة، وفى المنام تلقينا إلهامًا، بأن الكونتيسة الطيبة تنـادينى ملوحـة بمنديلها الأبيض، والذى صار فيما بعد حمامة تطير، تطير نحو السماء.

سألت السيدة وهى ترتجف:

ـ وهل هذا فأل حسن؟

ـ لا يوجد شىء آخر أفضل منه يا سيدتى الكونتيسة!. اتركينى إذًا مع نفسى: وهيا بنا إلى قصر السيدة العظيمة.

صحبت الكونتيسة... وبعد وقت قليل، المعالجة بالسحر التى كانت عيناها متعلقتان ببياتريث أوضحت ببطء:

ـ بالنسبة لهذه الوردة النضرة فقد أصابتها عين شريرة، وفى مرآة يمكننى أن أرى، لو أعطتنى السيدة بيدها المرآة.

والسيدة ناولتها مرآة قديمة من الفضة رفعتها أعلى المعالجة بالسحر مثلما صنع الكاهن بالقربان المقدس، وأفقدتها بريقها بأن كستها بالبخار الذى نفثته عليها بين أنفاسها، وبإصبع مرتجف رسمت الدائرة التى للملك سليمان. حتى انمحت بالكامل وبقيت العينان محدقتان فى المرآة:

ـ الكونتيسة الصغيرة مسحورة. ولكى نفك السحر جيدًا، علينا أن نتلو الكلمات الثانية عشرة التى تحتوى الصلاة لبياتو إليكتوس، عند قرع الأجراس الاثنى عشر لمنتصف النهار، والتى تكون عندما يجلس الأب المقدس إلى القداس ويبارك كل المسيحيين.

اقتربت الكونتيسة من المعالجة بالسحر: وجه السيدة بدا لواحدة ميتة، وعيناها الزرقاوان لهما اللون السام للألوان الكحلية التركواز.

ـ هل تعرفين القيام بعمل اللعنات؟

ـ أى سيدتى الكونتيسة، هذا ذنب كبير!

ـ أتعرفين عملهما. أنا أمرت بأن تقام قداسات والرب سوف يغفر.

والمعالِجة بالسحر فكرت لبرهة:

ـ أعرف عملها يا سيدتى الكونتيسة.

ـ إذًا اعمليها...

ـ لمن يا سيدتى؟

ـ للقسيس خادم كنيسة بيتى.

أحنت المعالجة بالسحر رأسها:

ـ لعمل ذلك نحتاج كتاب الصلوات والأدعية.

خرجت الكونتيسة ثم أحضرت كتاب الصلوات والأدعية الخاص بفراى أنخيل. والمعالجة بالسحر نزعت سبع صفحات ووضعتها على المرآة. بعد ذلك بيدين مضمومتين كما يكون للصلاة تلت الصلموديات:

ـ أيتها الشياطين! أيتها الشياطين! أحلّفك بالشر الذى أفكر فيه، وأعمالى الشريرة، وبكل ذنوبى، أحلّفك بنفس الحية،

وسم العقارب، وبعين البرص. أحلفك لكى تأتى دون تأخير وفى خطر هذه الدائرة للملك سليمان، أحبسك وفيهـا تكـون دون أن تمر دقيقة قد غادرت، حتى أستطيع أن أحملك إلـى الـسجون الكئيبة وتكون قد تخلصت من جحيم الروح التى فى هذه المرآة فى المجال الذى تراه. أحلّفك بهذه المسبحة التى أعرف كيـف تنتهك حرمتها بك وكيف تموت فى كـل مـرة أعـدها. أيهـا الشيطان، أيها الشيطان ومرة أخرى أحلّفك.

عندئذٍ تحطمت المرآة بأنين مفجع حزين لروح محبوسة. والنسوة الثلاث، رأين حمامتين، بخوف من أن تتكلمن، بخـوف من أن تتحركن، انتظرن النهار، واضعات أيديهن علـى شـكل صلبان. طلع نورالفجر عندما تعالى صوت خبطات هائلة علـى باب القصر. بعض القرويين من السلتيين يحملون على أكتـافهم جسد فراى أنخيل، الذى فى ضوء القمر اكتـشفوه طافيًـا فـى النهر... الرأس متصلبة، مجزوزة الشعر، مدلاة خارج النقالة.

زعيم

أحكى عن ذلك الطحان العجوز الذى اتخذته دليلاً لى من أجل زيارة الأحجار السلتية فى مونتى روريث محتفظًا بـــذكرى قاسية، باردة وحادة مثل الجليد الذى يتوج القمة. ربما أكثر من أساريره، التى تبدو منحوتة فى صلابة الجرانيــت. وحكايتـــه المأساوية جعلت ما بمثل هذه القوة يبقى فى الذاكرة . ذلك الوجه الذى فى لون الطباق، والذى بالكاد يتميز عن الجوخ المصنوع منه غطاء الرأس. لو أغمضت عينى أعتقد أننى سأراه. كثيــر العقد، جاف وقوى، كجذع عمره مائة عام لكرمـــة. خـــصلات الشعر رمادية، وتتناقص وتذكرنى بلحيته هذه البقع من المسك التى تظهر فى المواضع التى تغطيهـــا الأكاســـيد فـــى عظـــام الوجنات لتماثيل فى الأديرة المنعزلة الخالية من الأثاث. شـــفتاه من الفلين، تلتوى فى صرامة ودون أن تأبه لأحد: لـــه منظـــر جانبى لا يتحرك ومستغرق فى التفكيـــر. رأس جامـــد لـــنقش مصرى بارز. لا، لن أنساه أبدًا!

لقد كان محاربًا مرعبًا. عندما كانـــت الحـــرب الأهليـــة الثانية، دفع إلى ساحة الحرب فى الريف بأبنائه الخمسة، وفـــى أيام قليلة، نجح فى أن يشعل ثورة من أناس محنكين وجـــاهزين

ومتحمسين. وأحيانًا كان يأتمن أخاه خوان ماريا علـى قيـادة الحزب ويتوغل فى الجبل آمنًا مثل ذئب له فيه جحر، ويبقى فى انتظاره إلى أن يعاود الظهور حاملاً بندقيتـه مليئًـا بالأربطـة والرقع وآتيًا بصحبته شاب قروى بطـىء الفهـم، وخـواف، وكلاهما سواء فى قوته أو درجته، جاء ليزيـد الطـابور فـى الخدمة العسكرية. وفى الذهاب والإياب. اعتاد أن يرتـد إلـى الطاحونة ليعرف كيف ذهبت الأسر، والتـى كانـت أحفـاده، والأحجار التى طحنوها. وفى ليلة معينة مـن ليـالى الـصيف وصل ليجد كل شىء فى حالة فوضى وغير منظم. قيـد إلـى عمود تعريشه امرأة الطحان البائسة، ونادى، دون جدوى علـى أحفاده، الذين كانوا قد هربوا إلى القرية: الكلب السلوقى يعـوى بسبب رجله المثخنة بالجراح والمرفوعة فى الهواء. والباب كان محطمًا بكعوب البنادق والحبوب والدقيق قـد فرشـت الأرض: وفوق حوض العجين أمكن تبيُّن من كانوا موجودين على الطعام الذى لم يكملوه. وفى حوش الدار كان الصندوق العتيـق مـن خشب الكستناء مقلوبًا ومسلوب كل ما كان فيه... تأمل الـزعيم كيف كانت الكارثة دون أن ينبس ببنت شفة، وبعدما أدرك جيدًا ما جرى، اقترب من امرأته مغمغمًا بذلك الصوت غير اللائـق والمشتت لعجوز أصم:

ـــ السود أتوا؟

ـــ الأوغاد أتوا!

ـــ فى أية ساعة أتوا؟

ـــ يمكن أن تكون ساعة تناول الطعام، ما أشد ما ارتعبت، ما الذى أفعله لأزيل من رأسى ذكرى ما جرى!

ـــ كم كانوا؟ وما الذى قُلْتِه لهم؟

انخرطت زوجة الطحان فى البكاء بشدة. وبدلاً من أن تجيب، انطلق لسانها فى سب أولئك الأعداء الأشرار الذين قاموا بهذا التدمير الهائل فى بيت إنسان فقير، والذى لم يتدخل فى شأن أى أحد فى الدنيا. نظر الزوج إليها بعينيه النحاسيتين، عينى الجليقى السيئ الظن:

ـــ آى، أيتها الشيطانة! ألست أنت أكبر ملعونة والتى تخدعنى! أنت التى قلت لهم أين يوجد الحزب.

استمرت تبكى دون أن تجد من يعزيها:

ـــ كفى، يا رجل، أى صورة جعلنى عليها هؤلاء الجلادون من أورشليم! قيدونى تمامًا مثل سيدنا المسيح.

أعاد رجل المقاومة التلويح وهو غاضب بالبندقية:

ـــ حتى أرى كيف تجيبين، ووجه لها لكمة، ماذا قلت لهم؟

ـــ عليك أن تراعى السن، يا رجل!

صمت مطلقًا تنهيدة طويلة، دون أن يجرؤ على المواصلة، هاله بشدة التجاعيد التى بوجه العجوز، فلم يعد يلح. أخرج السكين، وعندما اعتقدت هى أنه سيقتلها، قطع الأربطة التى تقيدها، ودون أن ينطق بكلمة دفعها ليجبرها على أن تواصل، ولم تتوقف زوجة الطحان عن الأنين:

ـــ آى! يا أولاد بطنى! لماذا لم يتركونى أحترق على شوايات قبل أن أقول أين أنتم. فأنتم كالشموس. أما أنا فعجوز رجلى والقبر. وواجب علىَّ أن أسعى ألف سنة لأحج فى الطرق والدروب لأنال العفو من الرب. آى يا أولادى! يا أولادى!

سارت المرأة المسكينة مروعة وقد شبكت أصابعها الخشنة من الشغل فى الكومة الرمادية لشعر رأسها. وهى بنفسها توقفت، تمسد على خصلات شعرها وتئن، والزوج، كل مدة يغدو أكثر كآبة، دفعها بكعب البندقية، لكن بدون خشونة، وبدون حقد مثل بقرة أليفة مولودة فى نفس الحظيرة، والتى ثنت رجليها الأماميتين فجأة. خرجا من الحوض الملتهب بشمس يوم من أيام أغسطس. وبعد اجتياز مروج بيت ميلياس الريفى، توغلا فى عمق الطريق فى الجبل... تنهدت المرأة:

ـ أيتها العذراء المقدسة، لا تتخلى عنى فى هذه الساعة!

سارا بلا توقف حتى وصلا الى منعطف حيث وجدا مجموعة أيقونات للأرواح. صعد الزعيم فوق حائط من الطين والتين، وأخذ يراقب وهو مرتاب كم هى المسافة التى عليه قطعها من هنا حتى يرى الطريق.

رفع زناد البندقية، وبعد أن أرجع زر الأمان (البسنون) قدس بتأنٍّ وقور لمسيحى عجوز:

ـ سابيلا، اركعى على ركبتيكِ، جوار مجموعة أيقونات القديسين.

أطاعت المرأة وهى ترتجف. والعجوز مسح دمعة:

ـ مكانتكِ أعلى عند الله، يا سابيلا.

ـ آى، لا تقتلنى يا رجل! انتظر على الأقل لتعرف إذا ما كان هؤلاء الرهائن قاسوا وصبروا على أمر سيئ!

رجل المقاومة عاد يمرر يده على عينيه. بعد ذلك شد من حزامه المسبحة التقليدية ذات الشأن التى حباتها من الخشب، مرصعة بلون عنبرى مذهب، وأعطاها للمرأة، التى تناولتها منه وهى تنتحب. وثبت نفسه على الحائط، وغمغم بوجه عابس:

ـ هذه المسبحة تقدست من السيد قسيس أورينسى، مع الغفران فى ساعة الموت.

وهو نفسه شرع فى الصلاة بهمهمة رتيبة وباردة، ومن وقت لآخر يختلس نظرة قلقة على الطريق، وزوجة الطحان، شيئًا فشيئًا راحت تغمرها السكينة. وفى الأخدود الوقور للتجاعيد ظلت ترتجف الدموع: يداها اهتزتا بارتعاش الشيخوخة المتواصل، وهما تراوحان الصليب وميداليات المسبحة، انحنت تضرب صدرها وانكبت تقبّل الأرض وتتعبد... والعجوز همهم:

ـ هل انتهيتِ؟

ضمت يديها وهى تمجد كمسيحية:

ـ لتكن، يا يسوع، مشيئتك الإلهية!

لكنها عندما رأت العجوز المرعب يشرع البندقية فى وجهها ويصوب، هبت مذعورة وجرت إليه بذراعين مفتوحين:

ـ لا تقتلنى! لا تقتلنى بحق الروح الـ...!

دوت الطلقة، وسقطت فى وسط الطريق بجبين مثقوب.

الزعيم عثر فى الرمل الغارق فى الدم على مسبحته، مسبحة الثائر. قبّل الصليب البرونزى، ودون أن يتوقف ليحمل

البندقية هرب مباشرة باتجاه الجبل. خمن للحظـــة فـــى أعلـــى الطريق فى الجبل، والطرق الثلاث الممتلئة بالحرس المدنى.

أعترف بأنه، عندما كان أوربينو بيمشال الطيب يحكى لى فى بيانا ... هذه القصة المرعبة، ارتعدتُ، متــذكرًا الطريقــة العنيفة الإقطاعية التى أُطلقت بها النار على بنتادى برانديــسو الثائر القديم، انحنيت احترامًا للإرادة الخفية الجرانيتية لذلك الـــ "أبو الهول" المنحوت من سنديان عتيق مصقول.

قداس من أجل سان إليكتوس

النسوة قليلات الحياء، اللواتى كن يملأن أباريقهن من ماء السبيل، حكين تلك الحادثة بصوت ممتلئ فزعًا.

فالشبان الثلاثة كانوا عائدين من الطاحونة وهم يغنـــون. والثلاثة عضهم ذئب مسعور يهبط على القرية كلما هبط الليل... والشبان الثلاثة الذين كانت لهم قبل ذلك وجوه متوردة فى حمرة التفاحات، باتوا الآن أكثر اصفرارًا من الشمع، وكـــل فـــرحتهم فقدوها وهم يقضون الأيام قاعدين فى الشمس وقد عقدوا أياديهم الضامرة فى دائرة حول رُكـــبهم، وذقـــونهم مرتكـــزة عليهـــا. والنسوة قليلات الحياء تتجمعن وتتحادثن حول ســـبيل المـــاء، وعندما يرونهم وهن تمررن أمامهم تعودن أن يسألوهم:

ــ هل رآكم حلاق صحة ثيلا؟

ــ كلنا، نحن الثلاثة، رحنا له.

ــ ألم يعطكم علاجًا؟

ــ هذا المرض الشرس لا يوجد له علاج.

ــ لقد خدعكم يا شباب، فعلاج الأمراض كلها بمـــشيئة الله.

وتتركهم النسوة قليلات الحياء وهن يتمايلن تحت أباريقهن التى تتساقط منها قطرات الماء، والشبان الثلاثة باقون فى مكانهم يتطلعون إليهن بأعين حزينة وأنفس مكسورة، هذه الأعين التى للمرضى والتى تغور داخل محاجرها. وهكذا انتهى بهم الحال خلال أيام معدودة. وعندما قرروا مع آخر أمل ردَّ فيهم الحياة؛ خرجوا معًا ليسعوا فى الطرقات، يسألون الناس الصدقة ليقيموا بها قداسًا من أجل سان إليكتوس.

وكانوا عندما يصلون إلى باب بيت واحد من الأشراف، فإن السيدات العجائز يأمرن بتقديم المساعدة لهم، أما الصغار فيطلُّون عليهم من البلكونات المبنية بالحجر ويسألونهم:

ـ هل مر وقت طويل على حادثة العض هذه؟

ـ لقد أكملنا اليوم ثلاثة أسابيع على يوم عيد سان أمارو.

ـ وهل حقيقى أنكم كنتم آتين من الطاحونة؟

ـ حقيقى يا أسيادنا.

ـ وهل كانت الظلمة شديدة فى تلك الليلة؟

ـ كانت شديدة الظلمة كما لم تكن أبدًا، حتى القمر كان محجوبًا، والسكة كلها تقريبًا غارقة فى الظلام.

وبعدما يتلقى الشبان الثلاثة الصدقة يواصلون سيرهم، ثم يعودون ليطوفوا بالشوارع، ويقفون ليحكوا على كل باب حكاية الذئب وكيف عضهم.

ولمَّا جمعوا من الصدقات ما يكفى لعمل القداس؛ عـادوا إلى قريتهم، وكان ذلك مع حلول المساء، فساروا فـى صـمت خلال سكة الطاحونة، تلك السكة التى خرج منها الذئب ليـنقضَّ عليهم. والشبان الثلاثة شعروا بخوف مبهم.

ولم تكن الشمس قد غربت بعد. والقمر الوليد المطمـوس الملامح يطل الآن من السماء. وللمساء ذلك النـور الخريفـى الحزين الذى يتجلى فيستثير الروح ويملأها بالشجن وقوس قزح يغطى القرية وأشجار السرو القاتمة وأشجار الحـور البيـضاء الفضية أخذت تتمايل فى أشعة من نور برتقالى متوهج.

وواصل الشبان الثلاثة سيرهم فى طابور، وما كان يسمع فقط فى هذا السكون هو صوت خبط قبـاقيبهم علـى الأرض. وقبل دخولهم القرية؛ توقفوا أمام باب بيت راعى الكنيسة، والذى كان بيتًا قديمًا لواحد من الأشراف، ويقع على جانب الطريـق. كان راعى الكنيسة يتمشى للتشمُّس فى الهواء الطلق فى الخلاء. وصعدوا هم إليه، وبتواضع خلعوا أغطية رءوسهم وحيُّوه:

ـ السلام عليكم يا سيدنا الراعى.

ـ وعليكم السلام.

ـ لقد جئنا لك هنا لنسألك أن تقيم لنا قداسًا من أجل صاحب المجد سان إليكتوس.

ـ وهل جمعتم من الصدقات قدرًا طيبًا؟

ـ ما طلبناه كثير، أما ما أعطونا فقليل يا سيدنا الراعى.

ـ ومتى تريدون أن أقيم لكم القداس؟

ـ مثلما تريد، أما نحن فنريده غدًا باكرًا.

ـ سأقيمه لكم غدًا، لكن ذلك سيكون فى الفجر، لأننى كنت قد فكرت فى أن أذهب غدًا إلى السوق.

والثلاثة شكروا له فضله، وودعوه بصلاة صلمودية حزينة وهى تتم دائمًا فى صمت.

واصل طابورهم سيره إلى أن دخلوا القرية. أووا إلى مخزن تبن ليقضوا الليلة. وعند طلوع النهار، أول من قام من نومه بينهم نادى على الاثنين الآخرين:

ـ قوموا يا شباب!

استويا فى قعدتهما بألم، وبأعين ممتلئة غمًا وفم تتساقط منه الريالة خيوطًا، الاثنان تأوّها. والأول قال:

ـــ لست قادرًا على أن أتحرك!

والثانى قال له:

ـــ ارحمنى وساعدنى!

وأخذا ينتحبان وهما مدفونان حتى نصفيهما فـــى التـــبن. يحدقان بأعينهما الحزينة الغائرة فى رفيقهما الذى استوى واقفًا، وصارا يتشكيان كلٌ بدوره:

وقال الأول:

ـــ خذنى إلى الشمس لأنى أموت هنا من البرد!

وقال الثانى:

ـــ أحلّفك بأمواتك ألاَّ تتركنا مرميين هذه الرمية!

صوتاهما كانا يخرجان متشابهين، ورفيقهما انتابته حالـــة من الخوف الشديد فسألهما:

ـــ ماذا جرى لكما؟

والصوتان المختنقان تصاعد أنينهما وهما يقولان:

ـــ رحمة بنا خذنا إلى الشمس!

ورفيقهما اقترب منهما ليتأكد من حالتهما، لكن، وبالشكل الذى كانت عليه سيقانهما المتصلبة الكسيحة التى تعوق حملهما؛

تركهما فى مكانهما ومشى خارجًا تاركًا بوابة مخزن التبن مفتوحة من أجل النفوس المحسنة التى قد تمر عليهما والتى يمكنها أن تسعفهما. وما إن ودعهما حتى انخرط فى البكاء:

ـ إنهم يدقون الجرس الآن من أجل القداس. سأذهب لأسمعه من أجلكما أيضًا. لا تيأسوا، لأننا سنشفى كلنا بمشيئة صاحب المجد سان إليكتوس.

خرج، وفى الطريق ظل يسمع الصوتين المختنقين اللذين يبدوان صوتًا واحدًا:

ـ نجّنى من العذاب، يا صاحب المجد يا سان إليكتوس!

ـ يا صاحب المجد يا سان إليكتوس، لا تتركنى أموت فى هذا التبن مثل كلب!

وعلى باب الكنيسة، كان صبى قروى يدق الجرس للدعوة إلى القداس وهو يشده بجنزير. كان الباب مفتوحًا وما يزال راعى الكنيسة يرتدى رداءه الكهنوتى راكعًا على ركبتيه فى حجرة الكاهن. وبعض النسوة العجائز يقبلن فى الظل وقد اعتمرن بأغطية رءوسهن مع المرايل على الصدور. ومن وقت لآخر يصدر عنهن صوت لعطسة.

شق الشاب طريقه داخل الكنيسة مخففًا وكاتمًا لصوت خبط فردتي قبقابه، وعلى درجات سلم المذبح، ركع وهو يرسم علامة الصليب.

والصبى الذى انتهى من دق الجرس أتى وأشعل الشموع، وبعد ذلك بقليل خرج راعى الكنيسة وقد ارتدى رداءه ليبدأ القداس. كان الشاب قابعًا وقد تكور جسده على درجات غرفة الكاهن، وأخذ يصلى فى تبتل وورع، ها أنا راكع على الأرض لأتقبل البركة...

عندما عاد إلى مخزن التبن كان يجرجر ساقيه، وخلال ذلك اليوم بطوله؛ أصوات أنين الثلاثة التى بدت صوتًا واحدًا ملأت القرية.

وعند بوابة مخزن التبن كانت النسوة قليلات الحياء دائمًا موجودات، وهن يتطلعن إليهم بفضول. وفى الليلة نفسها، مات الشبان الثلاثة، وعلى نقالات مغطاة بملاءات من الكتان، حملوهم ليدفنوهم فى بقعة خضراء، بشذاها العطر، بمقابر كليمنتى دى براندیسو.

الملِك المُقنّع

الراعى لسان روسندو دى جوندار، رجل عجوز ضـــامر وداهية بوجهه وجه الراهب وعينيه المتجهمتين الضاربتين للون البنى كما لو كانتا لواحد من وحوش الجبال الضارية، عاد إلـــى بيته، بيت راعى الكنيسة، عند حلول الليل، بعد صلاة التسابيح. بالكاد قطعت عليه العزلة فى الريف، متجمدًا فى فصل الـــشتاء، بعض أشجار الحور العارية من الأوراق. بينما كـــان الطريـــق مغطى بالأوراق الجافة، طافية فى الشبورة الورديـــة لغـــروب الشمس.

وهناك فى المنعطف، ترتفع أيقونات الأرواح المقدســـة، وبجوارها صندوق مخصص للصدقات مكشوفًا؛ وقد كسر قفله، وتحطم، وليس بداخله أية نقود. كان بيت راعى الكنيسة منعزلاً فى وسط الريف، ولم يكن يبعد كثيرًا عن بعض الطواحين، كان لونه مسودًا، ومتشققًا من أثر النار، مثل تلك المتسولات اللواتى يسألن إحسانًا، متعرضًا للشمس والأمطار والمخـــاطر بجـــوار الطرق الرئيسية. ومثلما يأتى الليل عليهـــا، بتخـــيلات ســـوداء لعاصفة ثلجية ومياه مطر، عبر الراعى بسرعة، كاشـــفًا عـــن طبيعة الصياد. كان واحدًا من أولئك الزعماء مجزوزى الشعر،

والذى بعدما يلح فى طلب الأموال من كنائسه والمعابد ملبيًا نداء الاستغاثة لجماعة الثوار، وهم ينشدون قداسات بلا مقابل على روح ثومالاكاريجى. وعلى الرغم من سنى عمره بقى دون أن يتأثر بمرور الزمن، منتصب القامة، ماضيًا فى وضع يديه فى جيبى بنطلونه المونتى كريستو الأزرق، وعند التحية يخلع قبعته ذات الحواف، ومظلة حمراء هائلة تحت إبطه، ملاطفًا عنق بائع الحجل الخالى فمه من الأسنان، والذى يشتغل خفيرًا على الأرض المعرضة للشمس. دخل راعى الكنيسة إلى المطبخ فى الوقت الذى كانت تقف وهى تتحرك فيه بنشاط وزهو شابة قروية وقد جهزت المائدة للعشاء:

ــ ما هذا النشاط يا سابيلا؟

ــ أنت ترى أيها العم...

وسابيلا، مبتسمة، مختنقة قليلاً بدخان النار، وبالمنديل المزين بالزهور المعقود خلف العنق ليحتوى كمية الشعر الغزير الكستنائى، وبالقميص الخفيف المصنوع من نسالة الكتان، المشمر، مظهرة أعلى ما يمكن من عند الكوع ذراعيها الأبيضين، شديدى البياض، شقراء فى لون السنبلة، غاضبة كطفل رضيع، وارفة مثل فرع أخضر ومزهر وعلى فوهة القدر تبدو نافورة محددة بخطوط شقراء اللون، الطبق التقليدى

والموروث، والذى كان يستخدم فى الاحتفالات قبل ذلــك فــى جاليثيا. كاتولاس راعى الكنيسة تناول أكلة شهية لعجوز منعم، وبعد ذلك، جلس على الدكة فى حرارة الشعلة، وأخرج من جيبه سيجارًا من طباق غامق والتى نقرها بظفره، وفرك التراب بين كفيه، متصرفًا دائمًا برزانة شديدة واجدًا دائمًا هذه المهمة، ...، عندما يلح الكلب فى النباح، والذى يظل يتــشمم مــن ناحيــة لأخرى، متوقفًا عن خدش الباب بيديه، فيجبره على أن يجد سببًا لإثارة ضجيج مماثل:

ــ حيوان ملعون!

ــ سيكون كلبًا واعرًا؟

ــ واعرًا، براحته، لو كان واعرًا لم يكــن لينــبح بهــذا الشكل.

وفى هذا الوقت ابتدأ العزف فى الطريق شــديد العلــو، ومزعج، حتى ليبدو هاربًا مــن الجحــيم: تبــاهى بالــصنوج والدفوف، صوت زاعق ومفجع من البوق، أصوات نشاز لهــا صرير تصدر عن الجيتارات؛ والمثلثات، وأبدان الطبول. فتحت سابيلا النافذة وحدّقت فى الظلام:

ــ نعم، إنها فرقة لابسى الأقنعة!

ما كادوا يلمحون الشابة حتى بدأ أفراد من الفرقة الموسيقية المتجولة فى العواء، والقفزات وعمل حركات بهلوانية، بينما يدخلون البيت فى ضجيج وسهولة من يحمل وجهًا مستعارًا. كانوا حوالى ستة رجال، مسوِّدين وجوههم بالهباب كالشياطين ومتنكرين فى ملابس نساء، وعساكر، وشحاذين: نظارات سوداء، ولحى طويلة من النسالة، قبعات قديمة، عباءات مرقعة، وخرق كلها متسخة، مبتلة، مقرفة مما يجعلهم مثيرين للاشمئزاز والتشاؤم. وفوق نقالات يحملون شبحًا مفزعًا، وقد ألبسوه ما يشبه ملابس ملك أو إمبراطور، بتاج من الورق، وصولجان من القصب: وعلى وجهه يضعون له وجهًا مستعارًا شديد الفجاجة من الكرتون، وما بقى للتنكر التام؛ أكملوه بملاءة بيضاء. ناشدهم راعى الكنيسة بمجاملة خشنة أن يكشفوا وجوههم وأن يتناولوا جرعة من النبيذ، رفض أغلبهم وهم يتلعثمون على سبيل المجاملة، بينما كانت قسمات وجوههم تتعوج، وركبهم تنثنى احترامًا ورءوسهم تنحنى بشكل مضحك.

كانوا قد أنزلوا النقالات على الأرض، وأصابوا مَنْ بالمطبخ بالصمم بسبب الضوضاء بالغة الفظاعة التى أحاطوا بها الراعى الكنسى والشابة. والذين، ليس لهذا السبب، تركوا استقباله لهم بابتسامة كريمة وراضية: الكلب فقط هو الذى احتمى بأسفل الموقد شاهرًا أسنانه بينما ينطلق فى النباح. ألح

راعى الكنيسة على أنهما يعدان النبيذ من محـــصول كرومـــه، وأضاف بعدم ارتياح. والأحسن من ذلك أنه لا يبتعد أكثر مـــن عشرة فراسخ عن الناحية. إنه نقى كما خلقه الله، دون آثار دنيئة لعرق الزبيب، ولا لقوته، ولا لنبيـــذ كاميتـــشى المكـــسيكى... وأشعل مصباحًا، وعلق مفتاحًا صدئًا من بين مفـــاتيح أخـــرى معلقة على عمود خشبى مسود، ونزل السلم الذى يـــؤدى إلـــى القبو، حيث سمع صياحه:

ــ سابيلا، هاتى الجرة الكبيرة.

ــ سأفعل يا سيدى العم!

رفعت سابيلا المقلاة عن النار، وأنزلت الجـــرة وأخفـــت الفوهة السوداء، لتأخذ جرعة مثل مخلوق خرافى هائل، وعندئذٍ، واحد من لابسى الأقنعة المتنكرين اقترب من النافـــذة وفتحهـــا ببطء، حريصًا على ألاَّ يصدر صوتًا عاليًا، عصفة ريح أطفأت القنديل، تاركة المكان فى الظلمة، لكنه ميز فقط الوهج المحمر، الدامى للجمرات، والحدقات الفسفورية الشيطانية للقـــط، الـــذى تأرجح ذيله بعذوبة، وهو يغفو فوق أحجار الموقد الدافئة. فجأة ساد صمت عميق. همهم صوت خفيض:

ــ ما من نفس يمر.

ــ إذًا فعلينا أن نمشى.

تحسسوا الباب بدون تأكد ثم اختفوا كالأشباح. وعلى سلم القبو تصاعد صوت دوس أقدام الضيوف. أتت سابيلا وتوقفت، دون أن تجرؤ على أن تتقدم فى الظلام. ومن خلال النافذة التى كان الآخرون قد تركوها مفتوحة استطاعت أن ترى السماء الغائمة والطريق المبيض من الجليد، والذى يقع عليه ضوء القمر مرتعشًا وكئيبًا:

ــ لقد أتوا.

وتملك سابيلا الخوف دون أن تعرف لماذا. وراعى الكنيسة الذى أتى خلفها بالفانوس، وبهدوء مرح قال:

ــ أى أوغاد! لقد رجعوا بالفعل.

وكيف لا يرجعون؟ فهنا فى وسط المطبخ كان الملك غريب الشكل على نحو مضحك فى سكونه المهيب، بتاجه من الورق، وصولجانه من القصب. والغطاء الأبيض من النسالة، ووجه المهرج من الكرتون... سابيلا، أجابت الآن، متقدمة بضع خطوات، وقربت الجرة من الشفتين:

ــ أتحب أن تشرب، يا سيدى الملك؟

ابتعدت عنه، فإذا بالوجه المستعار ينحدر بعد ثانية واحدة إلى تحت، كاشفًا جبهة مصفرة، وعينين زجاجيتين، رهيبتين، مرعبتين:

ــ القداسة لكِ يا مريم!

والشابة، مرعوبة ارتدّت حتى اصطدمت بالحائط. وراعى الكنيسة وبخها:

ــ أى سيدة أنتِ؟

ــ لا... لا... يا سيدى يا عمى... لكنه ميت!

انقبضت فى مواجهة العجوز، اقتربت ونبضات قلبها تتسارع، بهذا الخوف الذى يتملك النسوة القرويات، فهى مدفوعة لأن ترى ولأن تقترب فإذا بها تغمض عينيها وتهرب دفعة واحدة.

رئيس الكنيسة رمى الوجه المستعار بعزم. بعد ذلك رفع الفانوس، مسلطًا النور فوق الرجل المقنع الذى لا يتحرك. تأمله باهتمام. واتسعت عيناه فى فضول وهى تنظر إليه بذهول، وأنزل الفانوس الذى اهتز فى يده التى تختلج وهى ترتعش من الشيخوخة. تمتم فى صوت مموه وأبح:

ــ هل تعرفينه يا شابة؟

وهى أجابته:

ــ إنه السيد الراهب دى برادومين.

ــ نعم... غدًا نعلن عن قداس على روحه.

سابيلا ارتعشت أعضاء جسمها كله، وارتفع أنينها وهي تتساءل، ما الذى فعلوه. تندب سوء حظها الذى من جرّائه أن يكون محكومًا عليهم بهذا الذى دخل:

ـ عمى... عمى يا سيدى! أيمكننا أن نخبرهم في الطاحونة.

الراعى قدر المسألة للحظة:

ـ لا، هنا أقل من أى مكان آخر. ويبدو لى أنكِ تعرفين ابنى الطحان. لكن يمكننا أن ندفنه فى الفناء بجوار أشجار البرتقال.

ـ وإذا اكتشفته الكلاب مثلما حدث بالنسبة لخادم ناظر أوقاف دى سوبران؟ ألا تتذكر؟

ـ إذًا فمعه هنا لن نكون موجودين. هل عندنا جوال؟

ـ لدينا عدد منها.

وعندئذ مضى راعى الكنيسة إلى النافذة وأغلقها وهو يعتنى بوضعٍ القضيب الذى يحكم إغلاقها، وعمل الشيء نفسه مع الباب:

ـ الآن استرحنا تمامًا من هذا الكلب، ومن ينادِ علىَّ فلن أرد عليه.

وهكذا اختفى البيت! أفهمت؟

خلع البالطو الذى يبلغ حتى ركبتيه، وأمسك بمذراة من تحت القبو. وبعد قليل عاد بربطة ضخمة من الأجولة وأخرى من القش:

تركها تسقط على الأرض وأحدث سقوطها صوتًا مزعجًا أمام سابيلا، التى كانت مكورة جسدها وقابعة بجوار الفانوس، تئن ووجهها ملتصق بركبتها، أمرها بأن توقد النار فى الفرن. واعتدلت الصبية مذعنة دون أن تصدر عنها رعشة، شاحبة مثل شبح... لم تتأخر ألسنة اللهب فى أن تتعالى، وموسيقى تصدر عن طقطقة الشرر المتدافع، التى تتوغل فى الحطب الناشف، وتغطى القبة والفوهة السوداء للفرن: امتدت ألسنة اللهب حتى وصلت إلى وسط المطبخ مثل نفخة من نفس يضرم النار. وانعكاسات النار التى أشعلاها أعطت للون الأزرق الرصاصى المائل إلى السواد لوجه الميت مظهر الحياة. والراعى حل أربطته بالنقالات وعمل على أن تفصله سابيلا، واضعًا رأسه فى الفرن. لكن بما أنه كان متصلبًا، انتظر بالضبط إلى أن تفحم الجذع ليدخل بقيته فى الفرن. وعندها اختفت قدماه مدفوعتين بالمذراة التى كان راعى الكنيسة يقلب بها النار، ويؤججها. أما سابيلا، فكانت تقريبًا مقطوعة الأنفاس، وتركت نفسها تسقط فوق الدكة.

ــ آى يا سيدنا... أى شىء يثير الرعب أكثر من هذا...

وراعى الكنيسة تركها ليسقى نفسه كأسًا من النبيذ ليقويه، وليعطيها مثلاً، فرفع الجرة إلى فمه بحيث حافظ علـــى مـــسافة طيبة. واصلت سابيلا بكاءها:

ــ بالقوة قتلوه ليسرقوه! شىء آخر لا يمكن أن يكـــون. بركة الله التى لم يمنحها لأحد! كان طيبًا كـــالخبز! ومحترمًـــا كعمدة كبير، وكريمًا كما لو لم يوجد أحد. تقدست العـــذراء، أى دخائل سوداء!. باركى يا أمنا السيد!

وفجأة توقفت عن نواحها، قامت، وبتلك البـــصيرة التـــى تولدت من كل تلك الشكوك كنست الرماد، وغطت فوهة الفرن، بيديها المرتجفتين. راعى الكنيسة جلس علـــى الدكـــة، ونقـــر سيجارًا آخر وتمتم فى هدوء مثير للدهشة:

ــ مسكين برادومين!... امنحنا يا رب خبزنا كفافنا!

أختى أنطونيا

(١)

سانتياجو بإقليم جليقية وجدت كواحدة من أماكن العبادة المقدسة فى العالم، حتى إن الأرواح هناك كانت تبقى عيونها يقظة كى ترى المعجزة!

(٢)

فى يوم من ذات الأيام، فى ساعة العصارى، أخذتنى أختى أنطونيا من يدى وذهبت بى إلى الكاتدرائية. كانت أنطونيا أكبر منى بعدة سنوات، وكانت طويلة، بوجه شاحب، وعينين سوداوين، وابتسامة هى أقرب إلى الحزن منها إلى الابتسام. وكنت طفلاً لم أزل، عندما ماتت. ولكن آه، ما أشد تذكُّرى لصوتها وابتسامتها ويدها الباردة كالثلج عندما أخذتنى من يدى، وذهبت بى إلى الكاتدرائية عصر ذلك اليوم. أكثر ما أتذكره، وسط ذلك كله، عيناها وهما تبرقان، والانفعال يحتدم فيهما بتلك النظرة المأساوية التى تتطلع بها إلى ذلك الطالب وهو يتجول فى الفناء ملتفًا بعباءة زرقاء. ذلك الطالب أصابنى بالرعب، كان طويلاً بادى الهزال، بوجه ميت وعينى نمر. عينان مقلقتان تحت تقطيبة جبينه الخشنة القاسية. بل إن أكثر ما جعله أقرب

شبهًا بالموتى عظام ركبتيه، إذ كانت تطقطق كلما مشى. ولقد سمعتها أمى وهى تطقطق، ولكى تتحاشى وقوعه تحت بصرها، كان عليها أن تبقى شبابيك بيتنا، المطلة على درب الصاغة، مغلقة. وما أذكره عنه عصر ذلك اليوم أنه كان يتمشى كما يفعل عصر كل يوم ملتفًا بعباءته الزرقاء، ويأخذ حفنة من الماء المقدس، ويمد بها يده لأختى التى كانت تجتاحها الرعشة بينما تتوجه بنظراتها إليه وهى تتوسل، ابتسم لها قائلاً بصوت خفيض:

ـ "أنا قتيلك!".

(٣)

دخلنا إلى واحدة من قاعات الصلاة، كان بها بعض العجائز يؤدين صلوات أسبوع الآلام. كانت قاعة الصلاة كبيرة خافتة الضوء، بمذبح تتعالى حوله الأصوات تحت القبة بأقواسها الرومانية. قاعة الصلاة تلك منحتنى عندما كنت طفلاً شعورًا غامرًا بالسكينة، سكينة الريف. ومنحتنى السكينة المتعة نفسها التى كنت ألقاها تحت ظل شجرة الكستناء المعمرة، أو تكعيبة العنب أمام أبواب بعض الدور، أو صومعة الراهب المعتزل فى الجبل. ودائمًا كان كورس السيدات العجائز يتجمع فى العصارى حيث يرتلن صلوات أسبوع الآلام، فتتجمع الأصوات وتتآلف فى

ترنيمة حارة، تتعالى محلقة تحت القبة العالية، فتبدو كما لو أن الصلوات تتصاعد كي تضيء الورود المرسومة على الزجاج الملون كشمس الغروب.

ودائمًا كانت تحلق فوقنا سحابة من تهليلات صلوات التمجيد التي تعلو غنتها، ثم تستحيل الصلوات إلى بحة أصوات هامسة فوق المذبح، لنسمع رنات الجرس الفضي يمسك به الشماس الصغير وهو يرفع عاليًا شمعته المشتعلة فوق كتف القسيس القائم بالخدمة الذي كان يتلو من الكتاب المقدس صلوات يوم الدينونة لآلام السيد المسيح. أوه يا قاعة طقوس الصلوات... متى يمكن لروحي، تلك التي شاخت إلى هذا الحد، والمتعبة إلى هذا الحد، أن تشف وترق وتغمر نفسها مرة أخرى لتذوب في ظلك الذي كان بلسمًا!

(٤)

كانت الظلمة قد حلّت تمامًا، والسماء تمطر مطرًا خفيفًا، عندما كنا أنا وأختي نجتاز فناء الكاتدرائية عائدين إلى البيت. ولا بد أن أختي كانت مرعوبة في الدهليز المظلم الواسع لأنها صعدت سلالم بيتنا قفزًا دون أن تترك يدي تفلت منها. ونحن ندخل رأينا أمنا وهي تعبر الصالة ثم تغيب خلف باب من الأبواب. رفعت عيني مسكونًا بالخوف والفضول وتطلعت إلى

أختى. ودون أن تقول شيئًا انحنت علىَّ وباستنى. وفى قلب أكثر سنِى عمرى براءة خمنت السر الذى ائتمنتنى عليه أختى أنطونيا. وكم أحسست بثقله فى صدرى كخطيئة مهلكة. وبينما كنا نجتاز تلك الصالة المعبأة بدخان لمبة الجاز، المكسورة زجاجتها من طرفها العلوى، اتخذت شعلتها شكل القرنين، فذكرنى ذلك بالشيطان. وطوال الليل ظللت مستلقيًا فى الظلمة، بينما يتأكد هذا الشبه الكبير بداخلى فلا يتركنى أنام. بل وظل يعاود إقلاقى من النوم طوال ليالٍ أخرى كثيرة.

(٥)

وعصر كل يوم كان المطر مستمرًا فى الهطول، وخلال فترات انقطاع المطر، كان الطالب يروح ويجىء فى فناء الكاتدرائية، لكن أختى لم تخرج وتذهب للكاتدرائية لحضور صلوات أسبوع الآلام. وبينما كنت أذاكر دروسى فى قاعة الجلوس الغارقة فى رائحة الزهور الذابلة، وكنت لكى أراه أترك النافذة مفتوحة بينما يتمشى هو، وحيدًا بابتسامة عصبية، وبحلول الليل، بدت هيئة الميت التى له شديدة الشبه بالموتى إلى حد يبعث على الخوف. وأتراجع من أمام النافذة وأنا أرتعد، لكنى ظللت أراقبه فلم أستطع فهم الدرس. وفى قاعة الجلوس الكبيرة، المقفولة، التى ترن فيها الأصوات، أحسست بمشيته، وبطقطقة عظام رجليه وصابونتى ركبتيه. ومن خلف الباب

بدأت القطة فى المواء، وخُيِّل إلىَّ أن مواءها يخرج ناطقًا باسم الطالب: ماكسيمو بريتال!

(٦)

بريتال قرية صغيرة فوق الجبال، تقع على مقربة من سانتياجو. والرجال المعمرون هناك يضعون فوق رءوسهم أغطية رأس من القماش بأطراف مدببة، ويرتدون عباءات من نسيج الصوف المغزول والمعروف بصوف السرج. أما عجائز النساء فيشتغلن بغزل الصوف ونسجه بالإسطبلات، حيث إنها أكثر رطوبة فتحمى الصوف وتحافظ على متانة الغزل أفضل من البيوت. لقد أقام راعى الكنيسة مدرسة فى فنائها، وعلى يديه، كان طلاب العلم من الصبية يتعلمون المبادئ الإجرائية لمهام العمد وموثقى صكوك البيع والشراء المحلية، ويتلون بصوت عالٍ حجج وقف مندثر منذور للصرف على دار الأيتام واللقطاء المنبوذين.

ماكسيمو بريتال كان من أبناء هذه الدار، وقدم إلى سانتياجو لتلقى العلم فى اللاهوت. وعند قدومه حمَّلته امرأة عجوز فى قريته، تتكسب من بيع عسل النحل، بما يكفيه من الزاد، من أرغفة عيش ذرة ودهن خنزير لمدة أسبوع.

لقد عاش مع آخرين من طلاب العلم الـديني فـي أحـد المساكن حيث يدفعون فقط، مقابل المبيت، أجرة سـرير. إنهـم حلقة دروس اللاهوت الفقراء، والذين ينادونهم بـ"المجاورين". لم يكن ماكسيمو بريتال قد تلقى بالفعل إلا قلـيلاً مـن أسـرار الكهنوت عندما دخل بيتنا لمساعدتي في تعلـم قواعـد اللغـة اللاتينية. وراعي كنيسة بريتال هو الذي كان قد زكـاه لأمـي باعتبار ذلك عملاً من أعمال الإحسان. وجاءت امرأة عجـوز تغطي رأسها بكوفية مما تلتحف بها النسوة في بريتـال لتقـديم الشكر حاملة معها، ما يعتبر هدية، سَبَتًا من تفاح زينيت. ولا بد أن واحدة من تلك التفاحات، حسبما قالوا بعد ذلك، كـان فيهـا "العمل" الذي سحر أختي أنطونيا.

(٧)

أمنا كانت سيدة تقية، ولم تكن تعتقد في أمور التفـاؤل أو التشاؤم، أو في أعمال السحر، إلا إنها صـارت تتظـاهر الآن بأنها تعتقد في هذه الأمور، بل وتبالغ في ذلك حتى تداري ألسنة نار الحب المشتعلة، والتي طالت ابنتهـا أنطونيـا وتوشـك أن تقضي عليها. وبالفعل، فمنذ ذلك الحين بدأ يستحوذ عليها ذلـك الانشغال بالعالم الآخر، مثلما كان ينشغل ذلك الطالب القادم من بريتال. إنني أتذكرها وهي منشغلة بالتطريز بعيدًا داخل الصالة كما لو كانت غائبة عن الوعي في عمق مرآة، غائبـة تمامًـا

بحركاتها البطيئة التى تبدو كأنها تتجاوب مع إيقاع يــأتى مــن العالم الآخر. خفوت صوتها وابتسامها لشىء أبعد منا، والبياض والحزن الذى يحيط بها تمامًا يجعلها كمن تطفــو فــى شــفق غامض، ويصيبها شحوب إلى الحد الذى تتراءى فيه وقد لفَّــت رأسها هالة كهالة القمر... يا لأمى، وهى تزيح الستارة عن باب من الأبواب وما إن تنظر باتجاهها حتى تتراجع مبتعــدة مــرة أخرى، دون أن تحدث صوتًا!

(٨)

عادت العصارى، برقة أشعة شمسها الذهبيــة، وعــادت أختى كما كانت، لتأخذنى معها كى نصلى مع العجائز فى القاعة المخصصة لقداس الجنازات. ولقد كنت أرتعش خوفًــا مــن أن يظهر لنا مرة أخرى عند مرورنا، ذلك الطالب مادًا إلينــا يــده الأقرب إلى يد الشبح والماء المقدس يقطــر منهــا. وتطلعــت بخوفى إلى أختى فرأيت شفتيها وهما ترتعشان. أما ماكــسيمو بريتال، الذى كان يتمشى فى صحن الكاتدرائية يوميًــا ســاعة العصر، فلم يكن هناك أى أثر له. لكن فجأة، وبينما كنا نجتــاز قاعات الصلاة فى الكاتدرائية، انشقت عتمة الرواق عنه تحــت أقواس السقف. وأول ما دخلنا قاعة الصلاة، رمى نفسه جاثيًــا على درجات سلم المدخل، وقبّل بلاطها الذى داست عليه أختى أنطونيا، وبقى جاثمًا هناك على تلك الحال، كالتماثيل المنحوتــة

فوق المقابر، بينما كانت العباءة فوق كتفيه، واليدان مضمومتان. وفى عصر يوم آخر، وبينما كنا نغادر الكاتدرائيـــة، فوجئــت بذراع تخرج من العتمة، وتمتد أمامى بأصابعها التـــى تتـــدفع مستميتة فى الإمساك، كالكلابات بطرف جونلة أختى أنطونيا:

ــ أنا قتيلكِ، ولا بد أن تسمعينى، ولا بد أن تعرفى كــم أتعذب... وهل لا تريدين حقًا أن ترينى؟

تمتمت أنطونيا ووجهها يبيض كزهرة بيضاء:

ــ "اتركنى يا دون ماكسيمو...".

ــ لن أتركك ــ أنتِ لى ــ روحكِ لى ــ ما أعشقه ليس جسدكِ، فالأكيد أن الموت سيدركه. انظرى فى عينى، اتركيهما تعترفان بأنفسهما لعينى بحبهما. انظرى إلىَّ!

وشدت يده التى فى لون الشمع جونلة أختى حتى مزقتها، إلا أن العينين البريئتين اعترفتــا بتلــك النظــرات الــصادقة المرتبكة. إننى أتذكره. وقد ظللت أبكى ليلتها فى الظلمة، كما لو أن أختى قد انخطفت من بيننا.

(٩)

واصلت استذكار دروس اللاتينية فى تلك الــصالة التـــى تغطيها رائحة الورود الذابلة. وفى بعض الأيام، فـــى ســـاعات

العصر، كانت أمي تدخل كما لو أنها شبح، وتختفى فى غرفـة جلوس السيدات، وكنت أستطيع سماع تنهدها بعمق فـى ركـن الكنبة الكبيرة المكسوة بحرير دمشقى قرمزى، وكنت واعيًا لها وهى تتلو صلاتها بصوت خافت. كانت أمي رائعـة الجمـال، بيضاء شعرها ذهبى، ولم تكن ترتدى ملابسها إلا من الحريـر، مع فردة جوانتى سوداء فى يد واحدة، وهى اليد التى ينقـصها إصبعان، أما اليد الأخرى، تلك التى كانت تشبه زهرة الكاميليا، فقد كانت مثقلة بالخواتم التى تغطى أصابعها كلها. تلك هى التى نبوسها دائمًا، اليد التى كانت تلاطفنا وتربت علينا بهـا، فـى الوقت الذى تكون فيه يدها الأخرى داخل فردة الجوانتى السوداء مُخفية بها عادة منديلاً من الدانتيلا. وعندما كانت ترسم علـى نفسها علامة الصليب، وتشرع فى التقديس، لحظتها فقط كانـت تظهرها كلها فتكشف عن حزنها البالغ بشدة سوادها على بياض جبينها الناصع، واللون الوردى لشفتيها، وعلى صدرها، صـدر سيدتنا العذراء الحانية. كانت أمي تستغرق فى صلاتها بعـد أن تندس فى كنبة غرفة الجلوس، أما أنا فأستغل فرصـة وجـود بصيص من الضوء للتسلل من باب الشرفة الموارب، كى أذاكر دروس اللاتينية فى الناحية الثانية البعيدة من القاعـة. وفتحـت كتاب قواعد النحو فوق واحدة من مناضـد تلـك الـشمعدانات القديمة التى حفرت عليها رسمة لوحة الـشطرنج. وفـى هـذه

القاعة المهيبة باتساعها الهائل، وأبوابها المقفلة التى يرن فيهـــا الصـوت عاليًا، تصعب الرؤية. وفى إحدى المرات خرجت أمى من صلاتها طالبة منى أن أفتح باب الـــشرفة علــــى اتـــساعه، فأطعتها وأنا ساكت، وانتهزت فرصة أنها أعطتنى الإذن بـــذلك ومضيت لأطل على الفناء حيث فاجأت الطالب وهو يتمشى فى عتمة الغروب، وما إن لمحته حتى فاجأنى واختفى. اســـتدرت عائدًا لمذاكرة درس اللاتينى بصوت عالٍ، وإذا بأحد يدق علــــى باب القاعة. كان ذلك أحد الرهبان من الفرنسيسكان، والذى كان عائدًا لتوه من الحج إلى الأراضى المقدسة.

(١٠)

الأب برناردو، ولزمن طويل، كان هو من تـــؤدى أمـــى أمامه طقس الاعتراف. وعند عودته من الحـــج لـــم يـــنس أن يحضر لها معه مسبحة مأخوذة حباتها من نوى الزيتون فى جبل الزيتون. كان طاعنًا فى السن، ضئيل الحجـــم، بـــرأس كبيـــر أصلع، ذكرنى بتماثيل أولئك القديسين الرومـــان أعلـــى رواق الكاتدرائية. وكانت هذه هى المرة الثانية التى يزور فيها بيتنـــا منذ عودته إلى دير سانتياجو. وما إن رأيته وهو يـــدخل مـــن الباب حتى تركت مذاكرتى لقواعد النحو وجريت نحوه لأبـــوس يده، وبقيت راكعًا على ركبتى، متطلعًا إلى أعلى نحوه، منتظرًا أن يمنحنى بركته. بدا لى أنه قد طلع له قرنان... آى! أغمضت

عينى، مرعوبًا مما يكيده لى الشيطان! واقشعر جسمى عندما أدركت أن هذه واحدة من ألاعيب الشيطان، ألاعيبه التى كلمونا عنها ورووها لنا فى قصص الرسل والتى كنت أطالعها بصوت عالٍ أمام أمى وأنطونيا، وهذه إحدى ألاعيب الشيطان التى يحرضنى بها لارتكاب المعصية، كما فعل الرجل الذى جاءت حكايته فى سيرة القديس بادوا. أما الأب برناردو، وهو من منحته جدتى اسم: "القديس الذى يمشى على الأرض"، فقد كان غارقًا فى غمرة ترحيب أمى به، حتى نسى أن يمنح بركته برسم الصليب لرأسى الحليق الحزين، بأذنى المتباعدتين جدًا حتى تبدوان وكأنهما ستطيران. رأس الطفل المثقل بسلسلة متصلة من عذابات الطفولة: اللاتينى بالنهار، والخوف من الموتى بالليل. وتكلم الراهب برناردو مع أمى بصوت خافت لا يكاد يسمع، فأشارت إلىَّ أمى بيدها التى فى فردة الجوانتى:

ـ "اخرج يا ابنى من هنا!".

(١١)

باسيليسا لاجاليندا، الست العجوزة، التى كانت مربية أمى، طأطأت رأسها لتتنصت من وراء الباب، وما إن فاجأتُها حتى أمسكت بى من ثيابى وشدتنى إليها، ويدها المليئة بالتجاعيد تطبق على فمى:

ـ "ولا صوت يا مكار!".

حدقت فيها طويلاً لأننـــى، وياللغرابـــة، وجـدتها أشـــبه بالرءوس التسع المنحوتة، التى تنتهى بها المزاريب البارزة من جوانب أعلى سطح الكاتدرائية، لكنها، وبعـــد برهـــة، دفعتنـــى برفق:

ـ "امش يا ضنايا!".

هززت كتفى بشدة حتى أخلص نفسى من يدها بتجاعيدها السوداء من الهباب، لكنى بقيت جنبها حتى أتنصت على صوت الراهب الفرنسيسكانى:

ـ "الأمر يتعلق بخلاص الروح...".

إلا أن باسيليسا عادت لتدفعنى بعيدًا عنها:

ـ "امش لأنك لا يصح أن تسمع شيئًا...".

وانحنت بشدة لتضع عينيها فى فتحة الباب الضيقة، أحنيت رأسى جنب رأسها، ولحظتها قالت لى الكلمات ولم تزد:

ـ "إياك أن تذكر شيئًا مما تسمعه الآن يا مكار!".

اندفعت أكتم الضحك، فقد بدا لى رأســـها رأس مـــزراب حقًا، ولم أستطع معرفة ما إذا كان رأس كلب، أم قط، أم ذئب. لكنه كان بنفس الهيئة الغريبة لأشكال تلك الحيوانات الحجريـــة

البارزة الممتدة بطول الكورنيش المحيط بسطح الكاتدرائية والمطلة على فنائها.

(١٢)

كان صوته فى الصالة عاليًا ومسموعًا واستغرق وقتًا طويلاً، صوت الراهب الفرنسيسكانى:

ـ "اليوم، حضر إلى ديرنا فى الصباح شاب أصابه مس من الشيطان، وكلمنى عن سوء حظه الذى لاقاه فى حبه، وأنه هالك وما من مخرج له، ولم يجد أمامه إلا اللجوء إلى السحر السفلى الأسود، وفى منتصف الليل، وعندما لجأ للشيطان ليعينه بقدرته، ظهر له الشيطان وسط أرض الرماد الهائلة الاتساع، والتى تجتاحها دمدمة الأعاصير التى تثيرها أجنحته الشبيهة بأجنحة الوطواط الهائجة تحت النجوم".

سمعت أمى تتنهد وهى تتوسل:

ـ "آى يا ربى!".

واصل الراهب كلامه:

ـ "حدثه الشيطان واستجاب له على أن يعقد معه اتفاقًا سيلقى به السعادة فى حبه. لكن الشاب ارتاب فى الأمر، فهو مسيحى، ومثلما يجرى للمسيحيين، فقد تم تعميده وتقدس بماء

المعمودية، فأبعد الشيطان بعد أن رفع الصليب في وجهه ليحميه منه. وفي هذا اليوم، استيقظ مبكرًا في الفجر وحضر إلينا في الدير، وفي حرارة سر الاعتراف، اعترف لي بكل شيء. ونصحته أن يرجع عن أعماله الشيطانية، إلا أنه لم يرتدع، ويبدو أن نصيحتي له لم تكن كافية لإقناعه أن روحًا ستورد نفسها موارد الهلاك بهذه الطريقة".

ومرة أخرى تعالى صوت أمي وهي تدمدم:

ـ "سأفضل الموت لابنتي!".

واصل الراهب كلامه وهو يبوح لها بالسر المروع:

ـ "لو أنها هي التي ماتت، فهذا قد ينقذه من الجحيم، أما إن بقيت على قيد الحياة، فقد يهلك الاثنان. وقدرة سيدة مسكينة مثلكِ لا تكفي للوقوف أمام قدرة سحر الأبالسة...".

تنهنهت أمي باكية:

ـ "ولكن ببركة الرب!".

وسادت فترة سكون طويلة، ويبدو أن الراهب كان مستغرقًا في الصلاة، طالبًا الخلاص والتوصل إلى حل.

ضمتني باسيليسا لاجاليندا بقوة إلى حضنها، وعندما سمعنا وقع خطى الراهب بخفّيه، خففت الست العجوزة من

ضغطها عليَّ، واستعدت لكى نقوم ونهـرب، إلا أنهـا ظلـت ساكنة، مرهفة سمعها لصوت الراهب حتى علا بعد ذلك:

ـ "لكن بركة الرب لا تفيض علينا دائمًا يا ابنتى، إنهـا كالينابيع تفيض وتجف. وهناك أرواح تفكر فى خلاص نفـسها فقط، ولا تحمل المحبة أبدًا لخلاص المخلوقات الأخرى. إنهـا ينابيع جفت. قولى لى: ما الذى يهمك أكثر ويحتل قلبك عنـدما تعرفين أن روحًا مسيحية معرضة للهلاك؟ وما الواجب الذى لا بد أن تقومى به من أجلها كى تحُولى دون أن يـتم عقـد هـذا الاتفاق الأسود مع قوى الشيطان؟

تتكرين عليه ابنتك حتى ينالها بأيدى الشيطان؟!".

وصرخت أمى:

ـ "يسوع تقدس اسمه هو أكبر معين لى!".

وردَّ الراهب عليها بصوت يتفجر بالغضب:

ـ "علينا أن نكون عادلين فى محبتنا بالتساوى للمخلوقات كلها، المحبة للأب، وللابن، وللزوج. محبـة لكـل الكائنـات المخلوقة من الطين، وبدون أن تعرفى، وبيدك السوداء أيـضًا، تهينين الصليب، تمامًا مثلما يفعل الطالب بريتال".

. ولا بد أنه كان يشوح لها بيديه الممتدتين نحــو أمـــى، إذ بعدها سمعنا صوت دبيب قدميه كما لو أنه يبتعد ويغادر البيت. فجرينا وهربنا، باسيليسا وأنا معها. ورأينا ونحن نجرى قطـــة سوداء تتجاوزنا، أما الأب برناردو الراهب فلم يشاهده أحد عند خروجه. وعندما ذهبت باسيليسا عصر ذلك اليوم نفسه، عادت لتحكى لنا أنه فى بعثة تبشيرية، تبعد عنا عدة فراسخ.

(١٣)

كم تواصل المطر وهو يلطم زجاج الشبابيك، وكم كـــان ضوء الشمس مثيرًا للحزن فى عصر ذلك اليوم، بل فى غرف البيت كلها!

جلست أنطونيا تطرز بجانب الشرفة، وأمنـــا مـــضطجعة على الكنبة وهى تحدق فيها بتلك النظرة المثبتة عليها، كما تنظر الساحرة التى تظهر فى صورة بعيون زجاجية. ران صمت ثقيل على أرواحنا. وكل ما كان يمكننا سماعه ليس إلا صوت بندول الساعة. وفجأة توقفت أنطونيا عن التطريز: الإبرة سكنت فـــى يدها، وهى شاردة كما لو أنها تحلم. كانت أمى بعيدة هناك فـــى قاعة الجلوس، تنهداتها تتوالى بلا انقطاع فى تحسر، ورمـــوش أختى تطرف بشكل خاطف مرتبك كما لو أنها فجأة أفاقت مـــن نومها. وساعتها أخذت كل الأجراس تدق من كنائس عديدة فـــى

وقت واحد. ودخلت علينا باسيليسا بالشموع فى يدها ثم أخـذت تطوف بأنحاء البيت لتطمئن بنفسها على غلق الأبواب كلهـا، وخلف مصاريع الشبابيك ثبتت دعامات خشبية. وعادت أنطونيا لشرودها مرة أخرى وهى منحنية على شغل التطريز. نـادتنى أمى بإشارة من يديها، رحت لغاية عندها حيث كانـت ترقـد. شدتنى من يدى إلى جانبها وأخذتنى فى حـضنها بينمـا أتـت باسيليسا بمغزل الصوف وقعدت على الأرض جنـب الكنبـة. وسمعت أمى تفقفق وأسنانها تصطك كالـصناجات، فركعـت باسيليسا على ركبتيها وقربت وجهها منها محملقة فيها بينما أمى تبكى وتولول:

ــ "هنا قطة تحت الكنبة، وها هى تخـربش بمخالبهـا! اطردوها!".

انحنت باسيليسا بشدة ومالت برأسها حتى أسفل الكنبة:

ــ "أين هى القطة التى تحت الكنبة؟ أنا لا أرى قططا!".

ــ "إذًا فأنتِ لا تسمعينها؟".

خبطت المرأة العجوز بمغزلها على الأرض وقالت:

ــ "أبدًا... أنا لا أرى أية قطط هنا".

صرخت أمى:

ـــ "أنطونيا!... يا أنطونيا!".

ـــ "ما الذى تريدينه يا سيدتى؟".

ـــ "ما الذى تظنينه أنتِ؟".

ـــ "لا شيء يا سيدتى!".

ـــ "ألا يمكنك سماع القطة وهى تخربش بمخالبها؟".

واصلت أمى ارتعادها:

ـــ "إنها تخربش عند رجلى، ولكنى لا أستطيع رؤيتها".

واشتد ضغط يديها على كتفى. وحاولت باسيليسا أن تجلب ضوء الشمعة المشتعلة إلا أنها انطفأت بين يديها والعاصفة تفاجئها مجتاحة الأبواب التى تتخبط كلها، وعندئذٍ، وبينما كانت أمنا تواصل صرخاتها محاولة أن تسيطر على أُختى بكلام متناثر لا صلة له بما يجرى، حملت الست العجوزة غصن زيتون فى يدها وأخذت ترش به الماء المقدس فى الأركان كلها.

(١٤)

دق جرس الباب، فانسحبت أمى إلى غرفة نومها، وجرت باسيليسا لترد، بينما فتحت أنطونيا الباب المؤدى إلى الشرفة وهى تشخص ببصرها للخارج باتجاه الساحة بعينى السائرة فى نومها. لكنها ارتدّت راجعة للوراء عدة خطوات ثم اندفعت

جارية إلى خارج البيت. تسمرتُ، متروكًا وحدى، ولبثت ضاغطًا جبينى على زجاج باب الشرفة، أرقب شمس الغروب ونورها يخبو، ثم ينطفئ. وخيل لى أننى أسمع صرخات تعلو من داخل البيت، وصوت الصرخات يصل عندى، لكننى لم أجرؤ أن أتحرك من مكانى، وتملكنى إحساس غامض مسيطر بأن الصرخات تنطلق بسبب غرض ما، ولأننى طفل، فلا ينبغى لى ولا يصح أن أعرفه، ولهذا السبب لم أتحرك من داخل الشرفة، فى الوقت الذى كان خوفى، خوف الطفل، يسيطر على تفكيرى وقد شوشت عليه العتمة. ثم إن الذكريات المشحونة بالهموم يزيدها النضج المبكر للأطفال وهم يفتحون أعينهم باتساعها على ما يجرى حولهم، وقد تركوا ألعابهم ليسترقوا السمع لأحاديث النسوة العجائز. وشيئًا فشيئًا خفت صوت الصرخات فى البيت، وعندما ساد السكون طرت جريًا من قاعة الجلوس، وأثناء اندفاعى فى الطرقة قابلت لاجاليندا التى قالت لى بصوت خافت وهى تحذرنى:

ـ "لا تحدث صوتًا يا ضناى. يا مكار!".

شببت على أطراف أصابع قدمى أمام غرفة نوم أمى، والباب كان مواربًا، ومن خلاله تناهت إلىَّ التأوهات من الآلام التى تعانيها، ورائحة الخل النافذة. دخلت من الباب الموارب، دون أن أحدث صوتًا. كانت أمى فى فراشها وقد تكومت فوق

رأسها مناديل كثيرة مبللة بالخل. وفى تضاد مع بياض الملاءة يرقد بروفيل كف يدها فى فردة الجوانتى السوداء، وعيناها المفتوحتان. وبينما كنت أدخل أدارت عينيها تجاه المدخل دون أن تحرك رأسها:

ـ "اطرد يا بنى هذه القطة بعيدًا عن رجلى".

اقتربت منها أكثر، فإذا بقطة سوداء تقفز الى الأرض وتجرى خارجة، وباسيليسا لاجاليندا التى كانت تقف فى المدخل، تراها أيضًا، وتقول إننى قدرت أن أخوف القطة وأجعلها تفر هاربة لأن قلبى طاهر.

(١٥)

أتذكر أمى، وكما لو أن ما جرى قد حدث خلال يوم واحد طويل، فى الضوء الكابى للغرفة التى لا تدخلها الشمس بشبابيكها المغلقة عادة، وقد جلست فى كرسيها ذى المساند ساكنة، وذراعاها متقاطعتان على صدرها، والمناديل المبللة بالخل مكومة على رأسها ووجهها قد ابيض تمامًا ولم تكن تنبس بحرف واحد. وما إن يفعل الآخرون ذلك، أى ما إن يبدأوا فى الكلام حتى تدير عينيها وتفتحهما على اتساعهما وتجبر الجميع على أن يصمتوا. كان ذلك الزمن يومًا طويلاً واحدًا يستحيل أن تكون له ساعات. كان يومًا بلا مواقيت، إذ كان اليوم كله أقرب

إلى أوقات الشفق، أو أقرب إلى أن يكون زمنًا فى الظل، وفــى يوم من تلك الأيام التى تحل نهاياتها عندما يحضرون المصابيح ويحملونها إلى غرف النوم، فاجأتنا أمى بصرخاتها:

ـــ "القطة!... القطة!... احملوها من فوقى... إنها راكبة فوق ظهرى!".

جاءت باسيليسا لاجاليندا مسرعة واندفعت نحوى ووجهها يخفى نواياها غير المفهومة لى. دفعتنى ناحية أمى ثم قرفصت وهمست فى أذنى وذقنها باللغد ترجف بينما كانت شــامتها ذات الشعيرات الكثيفة تحتك بوجهى:

ـــ "اجعل يدك على شكل صليب. أخذتنى باسيليــسا مــن يدى اللتين على شكل صليب، ووضعتهما علــى ظهــر أمــى، وبعدها سألتنى وهى تهمس بصوتها:

ـــ "بم تحس يا ضنايا؟".

أجبتها وأنا أموت من الخوف ومن همس صوتها نفسه:

ـــ أنا لا أحس بشىء يا باسيليسا".

ـــ "ألا تحس كما لو أن نارًا موجودة هنا؟".

ـــ "أبدًا. لا أحس بأى شىء يا باسيليسا".

ـــ "ولا بأى شىء".

صرخات أمى أرعبتنى، ووجدتنى أنفجر باكيًا، فأخـذتنى باسيليسا فى حضنها وحملتنى إلى الطرقة.

ـ "لا بد أنك ارتكبت خطيئة يا ضنايا. يا مكار، لأنك لم تستطع أن تطرد الشيطان". قالت ذلك ثم رجعت إلى غرفة أمى.

ظللتُ مكانى بالطرقة مرعوبًا وبى ألم لا يطـاق، بينمـا أحاول تذكُّر خطاياى الطفلية، تلك التى ارتكبتهـا. واسـتمرت الصرخات التى تأتينى من غرفة أمى، والخدم يحملون المصابيح والشموع المضاءة ويوزعونها على كل ركن من أركان البيت.

(١٦)

بعد ذلك، انقضت الليلة بالطول نفسه، وبالمصابيح التـى تتوهج أمام الخيالات، الأحاديث التى تدور بأصوات خافتة يرن صداها فى فراغ الأبواب التى يعلو صريرها كلما فتحوها. أمـا أنا فقعدت فى الطرقة جنب ترابيزة فوقها شمعتان مـضاءتان، وأخذت أفكر، أستعيد حكاية المارد جولياث.

ومرت بى أنطونيا وهى ترفـع منـديلها إلـى عينيهـا، وسألتنى بصوت مبحوح لا أكاد أسمعه:

ـ "ما الذى تفعله هنا؟".

ـ "لا شىء".

ـ "ولماذا لا تذاكر؟".

نظرت إليها فى اندهاش من السؤال، تسأله فـــى الوقـــت الذى ترقد فيه أمى مريضة وأنطونيا تمشى مبتعدة عبر الطرقة، فعدت أتذكر حكاية ذلك المارد عابد الأصنام الذى وقع ميتًا من ضربة حجر واحد. ولم يكن يبسطنى مهـــارة رمـــى الحجـــارة بالمقلاع، التى اشتهر بها الولد داود. وبحماس، نويت أن أدرب نفسى عليها عندما أخرج للتمشية على شاطئ النهر. وكانت لدىَّ فكرة غامضة وخيالية، تلح علىَّ أن أصوب أحجارى إلى الجبهة الشاحبة المصفرة للطالب الذى أتى إلينا، قادمًـــا مـــن بريتـــال. وعادت أنطونيا وهى تحمل مجمرة البخور، ومنها ينبعث دخان احتراق أوراق اللافندر الجافة الممتلئة بها، لتدور بهـــا وتبخـــر البيت.

ـ "ولد!... لماذا لا تذهب لتنام فى سريرك؟".

ومرة أخرى أسرعت جاريًا عبر الطرقة. لم أذهب إلـــى سريرى، بدلاً من ذلك، رحت فى النوم، ورأسى مسنودة علـــى الترابيزة.

(١٧)

لم أعرف إن كانت ليلة واحدة تلك التى مرت أم أكثـــر، لأن البيت كان غارقًا فى ظلمة بلا نهاية. والشموع لا تكف عن

الاحتراق أمام الأيقونات، وما أذكره أننى، وفى قلب أحلامـــى، سمعت صرخات أمى والأحاديث الغامضة للخدم وصرير الباب والجرس الصغير الذى يقرع كما لو أنه يعبر الشارع. وباسيليسا لاجاليندا كان عليها أن تأتينا بالشمعدان فتحملـــه وتمـــضى بـــه منطفئًا، لتعود به ثانية، بشمعتين جديـــدتين ينبعـــث ضـــوؤهما بالكاد. وحدث مرة أن رفعت رأسى من فوق الترابيزة، فرأيـــت رجلاً يلبس قميصًا بكمين، جالسًا أمامى وهو يخيط. كان ضئيل الحجم بدرجة مذهلة، بمقدمة رأس صلعاء، وقمـــيص تحتـــانى أحمر غامق. حيانى وهو يبتسم لى:

ــ "أكنت نائمًا أيها التلميذ الصغير؟".

وجاءت باسيليسا وأزالت الجزء المحترق من الشمعة، ثم سألتنى:

ــ "ألا تتذكر يا مكار أخى... ألا تتذكره يا ضنايا؟".

وفى ضبابية الحلم تذكرته. إنه خوان دى ألبرتى. كنت قد رأيته عدة مرات عندما أخذتنى الست العجوزفى صحبتها إلـــى برج الكاتدرائية. كان يخيط فى حجرة من حجرات السطح تحت رواق البواكى، وكان يرقع ثوبًا لأحد القسس. تنهدت لاجاليندا:

ــ "إنه هنا ليرسل خبرًا للقائمين بالخدمة فى الكاتدرائيـــة لتجهيز قاعة الصلوات". انفجرت باكيا، إلا أن العجوزين كليهما

نبهانى أن أبقى ساكنًا. وكان باستطاعتنا جميعًا أن نسمع أمـــى وهى تواصل صراخها:

ـ "أنا مرعوبة من هذه القطة!... أبعـدوا هـذه القطـة عنى!".

صعدت باسيليسا إلى غرفة نومها فى السطوح ثم ظهرت ثانية ممسكة بصليب من الخشب الأسود. غمغمت بكلام قليـل وغريب، ورسمت في الأول، علامة الصليب علـــى صـــدرى وعلى ظهرى وجانبى ثم حولى، وبعدها أعطتنى الـصليب ثـم التقطت مقص أخيها، مقص الخياطة الكبير الذى يعلوه الـصدأ، والذى يصدر صريرًا عاليًا كلما انفتح حداه، وقالت:

ـ "علينا أن نخلصها مادام هذا هو طلبها".

وسحبتنى من يدى ومضت بى حتى غرفة نوم أمى حيث كانت صرخاتها تتعالى بلا انقطاع:

ـ "أنا مرعوبة من هذه القطة!... أبعدوا هذه القطة عنى".

وعلى العتبة وقفت باسيليسا وأمرتنى بصوت خفيض:

ـ "اطلع بمنتهى الخفة فوق السرير، وحط الصليب فوق مخدتها. أما أنا فسأنتظر هنا فى مدخل الباب".

خطوت داخل غرفة النوم حيث كانت أمى قاعـدة علـى قزعها وشعرها منكوش، وقبـضتاها مبـسوطتان بأصـابعهما المفرودة الأقرب إلى المخالب، ويداها واحدة سوداء والأخـرى بيضاء. نظرت إليها أنطونيا ووجهها يصفرُّ، بينما تتمـتم فـى ضراعة. درت حول فراشها الناحية الأخرى، وأمامهـا رأيـت عينى أختى سوداوين وغائرتين، وما من دمعة تلـوح فيهمـا، ودون أن أحدث أية ضوضاء، صعدت فوق السرير، وحططت الصليب على المخدة فى الوقت الـذى كانـت باسيليـسا تقعـد منكمشة فيه هناك على عتبة الباب. ولبرهة واحدة فقط، لمحتها وهى تزحف ببطء فوق السرير، إذ إننى ما كدت أحط الصليب فوق المخدة حتى أخذت أمى تتأوه من الألم، وقطة سوداء تفـرُّ من بين أغطية السرير وتندفع جارية باتجاه البـاب. أغمـضت عينى بشدة، وسمعت بعينين مغمضتين صوت مقص باسيليـسا. وبعد ذلك جاءت الست العجوز إلى السرير حيث كانـت أمـى تتلوى من الألم وحملتنى فى حضنها ومشت بى حتـى خـارج الغرفة. وفى الطرقة، وبالقرب من الترابيزة التى كان يتطـاول خلفها ظل الخياط القزم، كشف ضوء الشمعتين بوضـوح عـن الأذنين المقصوصتين السوداوين، يداه قد تلطختا بالدم، مـشيرًا إليهما، إنهما أذنا القطة. ثم أحكم الرجل العجوز وضع غطـاء

رأسه، ومضى ليستدعى القسيس من صومعته ليقيم لها الطقوس الأخيرة بعد مسحها بالزيت المقدس.

(١٨)

كان البيت خانقًا برائحة الشموع الموقدة وهمهمات الناس وهم يتلون صلواتهم، والقسيس يهرول فى عجلة من أمره، مرتديًا ملابسه الكهنوتية ليتخذ فى النهاية وضعه الساكن بإحدى يديه المضمومة بالصورة الجانبية لها، فوق شفتيه، فى الوقت الذى كان خوان دى ألبرتى قد أفسح له الطريق ليمر منه عبر الأبواب. وكان الخياط، برأسه المائل على ناحية، يسير قدمًا فى خط مستقيم، مهيبًا، أقرب إلى أن يكون قزمًا، يحكم حبك عباءته حول جسمه، ويخلع غطاء رأسه ويحيى بإصبعين بطريقة مبالغة فى التهذيب، تشبها بأبناء الطبقة الراقية. ومثلما يسلك رجال الأعمال فى المواكب، والجمع خلفهم يتحرك ببطء وتجهُّم، مرددًا صلواته بأصوات أكثر خفوتًا، وفى قلب الحجرات، اصطفوا ومضوا من باب لباب، مشكلين الطابور الذى تحرك متجهًا إلى الأبواب المفتوحة المفضية إلى غرفة نوم أمى. أما أنطونيا ولاجاليندا فقد انكبتا فى الداخل تخيطان لها الأوشحة والأغطية، بينما كانتا تحملان بأيديهما الشموع الرفيعة. وشعرت بنفسى مع اندفاعى للأمام تحت ضغط الأيدى التى تبرز من العباءات وتعيق الحركة وهى تطول وتقصر، قابضة على الصلبان فى

مسابحها. كانت الأيدى بتجاعيدها الكثيرة للنسوة العجائز اللواتى يصلين وهن واقفات فى صف بطول الحائط، بينما الحدود الخارجية لظلالهن تضخم حجم أجسامهن إلى درجة مهولة. أما فى غرفة نوم أُمنا، فكانت هناك الندابة، امرأة بمنديل معطر، وهى التى كانت واقفة بثيابها الأرجوانية الزاهية كزهرة داليا، وقفت بعباءتها المنتسبة لبلدة الناصرة بفلسطين، وأخذتنى من يدى وركعت، وركعت معها، وساعدتنى فى الإمساك بشمعة رفيعة، وأخذ القسيس يطوف حول سرير أمى وهو يتمتم باللاتينية التى كان يقرؤها من كتابه. وبعد ذلك رفعوا الأغطية، ورأيت قدم أمى المتصلبة المصفرة، فتأكدت لحظتها من أنها ميتة. وبقيت ساكنًا فى حضن السيدة الجميلة وبشرتها البالغة البياض والاحمرار. ولم أكن من شدة رعبى بقادر لا على الصراخ، ولا على الإتيان بأية حركة. بين ذراعى تلك السيدة البيضاء المتوردة، التى مالت علىَّ بجانب وجهها لصق خدى، وساعدتنى فى (حمل) شمعة الجنازة.

(١٩)

جاءت لاجاليندا لتنتزعنى من بين ذراعى تلك السيدة، وأخذتنى إلى حافة السرير حيث كانت أمى لا تزال فى مكانها عليه، متخشبة ولونها مصفر، ويداها متكورتان بين طيات

الملاءات. رفعتنى باسيليسا من فوق الأرض حتى أتطلع جيـــدًا فى ذلك الوجه الشمعى:

ـ "قل لها وداعًا يا ضناى، قل لها وداعًا يا أمـــى، و... وداعًا ولن أراكِ بعد ذلك!".

ثم أنزلتنى العجوز وأوقفتنى على الأرض لأنها تعبـــت، وبعد أن استردت أنفاسها، عادت لتحملنى وتسندنى مـــن تحـــت إبطى بيديها المعروقتين كلحاء جذع العِنَبَة:

ـ "تطلّع فيها كثيرًا، واحفظ صورتها لتتـــذكرها عنـــدما تكبر... وأعطها بوسة يا ضناى!".

وجعلتنى أنحنى فوق وجه الميتة. وهكذا لمست الرمـــوش الواقفة التى لا تنثنى فأخذت أصرخ متشبثا بذراعى لاجاليـنـــدا، لائذًا بينهما، لكن، فجأة، ظهرت، وبشعرها المنكوش، أنطونيـــا، فى الناحية المقابلة من السرير.

انتفضتُ غاضبًا على الخادمة العجوز، فشدتنى أنطونيـــا إلى صدرها وهى تنخرط فى النشيج وتختنق بالدموع، وتحـــت قبلات أختى الممتلئة بالأسى، وتحت نظراتها بعينيها المحمرتين، امتلأت إحساسًا بفجيعة لا حد لها. لقد تحولت ملامح أنطونيا إلى ملامح جامدة، ووجهها يحمل تعبيرًا عن ألم فظيع، معاند. إنهـــا تبدو الآن وكأنها فى عالم آخر. وتعود لتبوسنى وهـــى تنهنـــه

باكية، ثم سرعان ما تحيطنى بذراعيها ثم تضحك، وتـضحك، وتضحك... حتى أسرعت سيدة فخلعت منديل رأسها وأخـذت تهوِّى عليها، بينما أسرعت أخرى بعينين مرعـوبتين، تنـزع غطاء زجاجة عطر وتقدمها لها، وثالثة أسرعت داخلـة علينـا بكوب ممتلئ بماء يترجرج فوق صينية من المعدن.

(٢٠)

لُذْتُ بركن من أركان البيت غارقًا فى ألم جعـل ذهنـى مشوشًا، لأن الألم كان يندفع فى شرايين صـدغى بعنـف دوار البحر وانخرطت لأوقات طويلة فى البكاء، وفى أوقات أخـرى كان ينسينى بكائى أننى كنت أواصل سماع انخراط الآخرين فى البكاء.

ولا بد أن الوقت كان يقترب من منتصف الليـل عنـدما انفتحت ضلفتا الباب على مصراعيهما وارتعشت فى قلب القاعة أنوار الفتائل المشتعلة للشموع الأربعة. كانت أمى لا تزال فـى كفنها داخل تابوتها الأسود عندما دخلت القاعة دون أن أحـدث صوتًا وقعدت على أرضية الشباك المفتوح. وحـول التـابوت كانت ثلاث سيدات ساهرات ومعهن شقيق باسيليسا، ومن وقت لآخر، كان الخياط يهب واقفًا ليبصق فـى أطـراف أصـابعه، ويزيل ما احترق من فتائل الشموع المـشتعلة. ذلـك الخيـاط

القصير الكريم، بالصديرى الأحمر الغامق، الذى لا يقل مهـــارة عن الحاوى فى التقاطه ما احترق من فتائل الشموع المحترقة، وتكويره لخديه بالهواء الذى ينفخه فى أطراف أصابعه ليبردها. وظللت أصغى لحكايات السيدات، وشيئًا فشيئًا توقفت عن البكاء. أما حكاياتهن فكانت تدور حول العفاريت وعن ناس مـــدفونين وهم أحياء.

(٢١)

مع طلوع النهار أتت ودخلت علينا فى غرفة النوم ســيدة فارعة الطول، بعينين سوداوين وشعر أبيض بلون الثلج وباست أمى فوق عينيها المـــسبلتين دون أن تخـــشى بـــرودة المـــوت فتتراجع، ودون أن تدمع عيناها. بعدها ركعـــت الـــسيدة بـــين شمعتين، ثم غمرت غصن الزيتون فى إنـــاء المـــاء المقـــدس وأخذت تهزه وترش به قطرات الماء فوق الجـــسد المـــسجى. ودخلت باسيليسا وعيناها تتفرسان فى أنحاء الغرفة بحثًا عنـــى. وأومأت لى وهى تشير بيدها إلى السيدة:

ـــ "شفت جدتك يا ضنايا؟".

كانت جدتى! ولقد أتت من بيتها فوق الجبال إلى هنا، فى سانتياجو، أتت قاطعة سبعة فراسخ فوق بغل. وسمعت فى تلك اللحظة ضربات حوافر فوق أرض الساحة المبلطـــة بـــالحجر،

حيث كان البغل مازال مقيدًا. ووضح صوت حوافره أقرب إلى الصدى فى جوف هذا البيت الغارق فى النحيب.

ونادت علىَّ أختى أنطونيا من الباب:

ــ "ولد! يا ولد!".

خرجت بهدوء شديد كما أكدت الخادمة العجوزة وهى تلح علىَّ. وأمسكت أنطونيا بيدى، وأخذتنى إلى أحد الأركان وقالت لى:

ــ "هذه السيدة هى الجدة. ومن الآن ولسنين قادمة سنعيش معها".

وأنا همست:

ــ "ولِمَ لم تَبُسْنى؟".

وبقيت أنطونيا ساكتة لبرهة وهى تفكر وتدعك عينها:

ــ "أنت أهبل! كان عليها فى الأول أن تصلى من أجل ماما!".

أخذت صلاة جدتى وقتًا طويلاً، وفى نهاية الصلاة قامت واقفة وهى تسأل عنا. ومن يدى، سحبتنى أنطونيا وأخذتنى إليها. كانت جدتى تحط طرحة سوداء فوق شعرها المجعد الفضى بأكمله، حتى ليبدو وكأنه يزيد سواد عينيها بريقًا.

ولبرهة، احتكت خشونة أصابعها بخدى، لكنى مازلت أذكر الإحساس الذى تركته يد القروية تلك، بغلظتها وافتقارها للنعومة. وتكلمت معنا بلهجتها الريفية:

ـ "أمكما ماتت. ومن الآن، فالأم التى ستكون لكما هى أنا. وليس لكما فى الدنيا أحد آخر يحافظ عليكما. وسوف آخذكما معى لأن هذا البيت سيغلق. وغدًا وبعدما ننتهى من القداس سنتدبر أمر سفرنا".

(٢٢)

وفى اليوم التالى أغلقت جدتى البيت بالفعل، وبقينا على السكة لنأخذ طريقنا إلى سان كلمينت دى برانديسو. كنت فعلاً فى الشارع، راكبًا فوق بغل أحد ساكنى الجبال، والذى جعلنى أركب أمامه على مقدمة السرج، وسمعت فى البيت صوت خبط إغلاق الأبواب والصراخ يتعالى بحثًا عن أختى أنطونيا. لكن لم يمكنهم العثور عليها. وبوجوه يعصف بها الفزع، اندفعوا إلى الشرفات لبرهة واحدة فقط، ليرتدوا بعدها مندفعين فى جريهم بين الغرف الخالية حيث كانت الريح تخبط الأبواب بعنف فتخيلوا أصداء صريرها كما لو أنها تصرخ من أجل أختى. ومن بوابة الكاتدرائية اكتشفتها واحدة تقية ممن تقمن بالخدمة، وهى خائرة القوى فوق السطح. نادينا عليها ففتحت عينيها فى

النور الوهاج لشمس الصباح، مفزوعة كما لو أنها تستيقظ مــن حلم مشئوم. ولكى ننزلها من فوق السطح أخرج لنا واحد مــن خدام الكنيسة بلباس قسيس، لكن دون سترة، سلمًا طويلاً لهــذا الغرض. وعند انصرافنا، كان هناك فى الفناء طالب بريتال يقف بعباءته التى تتلوى من الريح، واضعًا علــى وجهــه ضــمادة سوداء. وخيل لى أننى ألمح تحتهــا البقايــا الداميــة للأذنــين المقصوصتين المقطوعتين من أصلهما.

(٢٣)

فى سانتياجو بإقليم جليقية، وكما وجدت، بقيت واحدة من أماكن العبادة المقدسة فى العالم، وأرواح أهلها لم تزل محتفظة بعيونها مفتوحة على النبأ العظيم.

بشكل غامض

يوجد فى العائلة شيطان أيضًا! وأذكر، عندما كنت صغيرًا، أن الليالى كلها كانت تنقضى فى جلسات سمر مع جدتى، التى كانت كبيرة فى السن وتعرف هذه الأمور المرعبة المزعجة التى تأتى بشكل غامض. وكانت هناك سيدة من أصول شريفة، ونقية، وكانت تسكن فى قصر كبير فى شارع روا دى لوس بلاتيروس. أذكر أنها كانت تقضى الساعات وهى تنسج بشغل الإبرة جوارب طويلة خلف الضلف الزجاجية لبلكونتها وبصحبتها القط الراقد على جونلتها، دونيا سوليداد أمارنته، كانت فارعة الطول، رهيفة، سريعة القلق؛ بشعرها الأسود الفاحم الذى تتخلله خصلات بيضاء، ووجنتاها جلد على عظم، تلك الوجنات التى تعبر عن معاناتها، إذ تبدو يتيمة محرومة من القبلات والمداعبات. وقد أثارت تلك السيدة فى نفسى رعبًا غامضًا حين حكت لنا أنها فى سكون الساعات المتأخرة من الليل سمعت طيران أجنحة أرواح الذين ماتوا، وانبعثت من داخل المرايا ملامح الوجوه الضاربة إلى الزرقة والتى تطل بعيون معذبة. لا، لن أنسى أبدًا الانطباع الذى سببته لى عندما رأيتها وقد أتت فى أول الليل، وجلست على إحدى الكنبتين فى حجرة الضيوف التى لجدتى، ومدَّت للحظة فوق جمرات المدفأة

يديها الشبيهتين بجذع شجرة العنب وفروعها، وأسرعت بإخراج جورب طويل من كيس قطيفة قرمزى وأخذت تـشتغله. ومـن وقت لآخر تنخرط فى البكاء، وقد اعتادت أن تواصل الندب:

ـ آى، يا يسوع!

وذات ليلة جاءت إلينا وكنت راقدًا بين النوم واليقظة فـى حجر أمى، وبالرغم من ذلـك فقـد شـعرت بثقـل نظرتهـا المغناطيسية عندما نظرت إلىَّ، ولا بد أن أمى أيضًا انتبهت إلى الشر الكامن فى هاتين الحدقتين بلونهما الفيروزى الرصاصـى السام لأن ذراعيها عذَّبانى وضيَّقا علىَّ الخناق بشدة. وأخـذت دونيا سوليداد قعدتها على الكنبة، وبصوت خافت جعلت تـتكلم مع جدتى. أحسست بالتنفس اللاهث لأمى التى كانت ترقبها وبها رغبة شديدة فى أن تخمن بالكاد ما الذى تقوله، ومـا إن دقـت الساعة السابعة حتى مررت جدتى منديلها على عينيها، وبصوت يفتقر إلى الإحساس بالأمان إلى حد ما، قالت لأمى:

ـ لماذا لا تقومين وتنوِّمين هذا الولد؟

رفعتنى أمى بين ذراعيها وحملتنى ومشت بى إلى الكنبة لكى تقبلنى السيدتان، ولم أشعر أبدًا بمثل هذا الرعب الحى الذى شعرت به من دونيا سوليداد وهى تمر بيدها، يد المومياء، على وجهى وتقول لى:

ـ كم تشبهه!

وغمغمت جدتى وهى تقول لها:

ـ صلِّ من أجله، صلِّ من أجل ابنى!

كانتا تتكلمان عن أبى، الذى كان فى السجن لأنه من أنصار الأمير المُدَّعِى بالحق فى العرش وفق الدستور، فى سجن سانتياجو، وأنا أرغب في أن أخفى وجهى فى كتف أمى التى احتضنتنى بقوة وكسا وجهها حزن:

ـ مسكين يا ابننا!

بعد أن هدأتنى بقبلاتها، بينما كانت عيناها، هاتان العينان الجميلتان، تفتحهما بشكل مجنون ومأساوى:

ـ ابن روحى، كارثة جديدة تهددنا!

تركت دونيا سوليداد للحظة الجورب الطويل، وغمغمت بصوت بعيد لعرافة:

ـ فيما يخص زوجك، فلم تحدث له أية مصيبة.

وهمست جدتى:

ـ اذهبى ونوِّمى الولد.

بكيت وأنا ألفُّ ذراعى حول رقبة أمى متشبثًا بها:

ـ لا أريد أن تنوِّموني! أنا خائف من أن تتركوني وحدي، لا أريد أن تنوِّموني!

داعبتني أمي بيد متوترة حتى إنها، تقريبًا، آلمتني ثم عادت إلى السيدتين تشرح لهما وهي تنشج باكيةً:

ـ لا تعذباني، وقولا لي ماذا جرى لزوجي وأنا عندي الشجاعة لأعرف كل شيء عنه.

رمتنا دونيا سوليداد بنظرتها، تلك النظرة المؤذية بلون الرصاص، وتكلمت بصوت يغلفه الغموض، بينما كانت أصابعها تحرك الإبرتين في الجورب:

ـ أي، يا يسوع!... بالنسبة لزوجك فلم يحدث له شيء، لابد أن شيطانًا يحميه، لكنه ينزف دمًا...

كررت أمي في صوت خفيض وعلى وتيرة واحدة كما لو أن الروح كانت غائبة:

ـ هل نزف دمًا؟

ـ لقد هرب هذه الليلة من السجن، قتل السجان. هذا ما رأيته في منامي.

كتمت أمي صرخة، وكان عليها أن تجلس حتى لا تقع من طولها:

كانت شاحبة، لكن كانت فى عينيها بارقة أمل مأساوية، وبيديها الاثنتين معًا استفهمت:

ـ هل أُنقذ؟

ـ لا أعرف.

ـ ألا يمكن أن تعرفى؟

ـ يمكننى محاولة ذلك.

وهنا ساد الصمت طويلاً. كنت أرتعش فى حجر أمى بعينين مذعورتين استقرتا على دونيا سوليداد. كانت الصالة تقريبًا غارقة فى العتمة. وفى الشارع كانت كمنجة رجل أعمى تزعق، وجرس كبير للراهبات يدور معلنًا بداية التاسوع.

قامت دونيا سوليداد من على الكنبة وظلت تتمشى دون أن يصدر عن مشيها صوت، ورأيناها وهى تبتعد متجهة إلى داخل الصالة حيث كان ظلها يتلاشى تقريبًا. اطلعت على شىء بالرغم من أن هيئتها السوداء، وبياض يديها لم يتحركا، وفى علوها، وبعد قليل أخذت تئن بصوت خافت كما لو أنها تحلم. وأنا، قد امتلأت رعبًا، ظللت أبكى وأمى تضغط على فمى، وتقول لى بصوت مبحوح وشارد:

ـ اهدأ لأننا سنذهب إليه. هل تعرف أباك؟

مسحت دموعى بينما واصلت التطلع فى العتمة إلى هيئة دونيا سوليداد. وبشكل صارم سألت أمى بصوت حزين:

ـــ هل يمكن رؤيته؟

ـــ نعم. لقد مشى فى طريق ملىء بالمخاطر، والآن هـو وحيد يمشى وحده فيه، ولا أحد يتبعه... إنه محاصر عند الضفة الأخرى لنهر ويخاف أن يجتازه، إنه نهر، لكنه يبدو كما لو كان بحرًا.

ـــ يا سيدتنا العذراء، لماذا لا يجتازه!

ـــ فى الضفة الأخرى يوجد سرب من الحمام الأبيض.

ـــ هل هو فى أمان؟

ـــ نعم. بداخله شيطان هو الذى يحميه. ظِـل المـوت لا يمكنه أن يفعل شيئًا ضده، والدم الذى بيديه أراه وهو يتـساقط قطرة فقطرة فوق رأس بريئة.

ومن بعيد سُمع خبط على الباب، وشعرنا كلنا بأن شخصًا ما دخل إلى الصالة، وشعرى وقف، ونفس بارد مس جبهتـى، والذراعان غير المرئيان لشبح يريدان أن يخطفانى من حجـر أمى؛ فضمتنى وهى مرتاعة دون أن تستطيع الـصراخ، وفـى العمق الضبابى للمرآة رأيت العينين اللتين لميت، وبـدا يظهـر شيئًا فشيئًا اللون الرصاصى المطفأ للوجه بالكفن والخنجر فـى

الحنجرة النازفة. ومفزوعة رأتنى أمى وأنا أرتعش؛ فـضمتنى بشدة إلى صدرها، ما أظهرته المرآة كان لى أنا، أما هى فلم تر شيئًا، تركت دونيا سوليداد ذراعيها يسقطان، وعندئذٍ لم يتحركا من علوهما، ومن الناحية البعيدة للصالة، خرجت من الـضباب كما فى حلم، وجاءت نحونا. صوتها، صوت العرافة؛ بدا آتيًـا أيضًا من بعيد جدًا:

ـ أى، يا يسوع! عينا الطفل فقط هما اللتان رأتاه. الـدم يتساقط قطرة فقطرة فوق الرأس البريئة، تائه فى تجواله بظلـه المنتقم للموت، الحياة كلها كانت خلفه، يلقاها فى الخطيئة، عندما يترك العالم ويكون ظلاً شيطانيًا لا يمكن أن يغفر. يومًـا مـا سينزع الخنجر الذى غرسه فى الحنجرة كى يجرح البرىء.

عيناى، عينا الولد، احتفظتا لزمن طويل بالرعـب الـذى رأتاه عندئذٍ وحاسة السمع عادت لتشعرنى مرات كثيرة بكوابيس الأشباح التى تمر من جانبى، لا ترحم بشؤمها، دون أن تتـرك روحى ممتلئة كلها بالضيق، كلها مقهورة تحت وطأة أعاصـير الحنين والعواطف النقية، بدت خارجة من البرج، حيث الحلـم الأسير منذ ثلاثين سنة، وفى هذه الساعة نفسها، أسمع الكوابيس الصامتة للقائد السجان.

فى منتصف الليل

فارس على حصانه وخادمه الذى يرافقه جريًا على قدميه كانا يندفعان خلال سحابة ترابية، وعلى البعد كانا يبدوان بالكاد شبحين انفصلا عن الجيش فى الظلام على خلفية دامية للغروب. الساعة، المكان، الطريق المنعزل، ساعدا على الغموض الذى أحاط بتلك الأشباح المطاردة، وفى واحد من مفارق الطريق شد الفارس عنان الحصان ثم أوقفه. ووقف مترددًا بين أن يأخذ الطريق الذى تسير فيه العربات أو الطريق الذى تسير فيه الأحصنة والبغال والخادم الذى يجرى قدامه، وقف بدوره وأخذ يتطلع بالتناوب إلى طريق ثم إلى آخر وسأل:

ــ إلى أين نحن منطلقان يا سيدى؟

تردد الفارس لحظة قبل أن يقرر، وبعد ذلك أجاب:

ــ فى الطريق الذى سيكون أقصر.

ــ الذى سيكون أقصر هو طريق الجبل، لكن بالطريق العادى نتفادى المرور بالليل فى غابة سنديان الطاحونة... وهى شهيرة!... والفارس عاودته شكوكه، وبعد لحظة من الصمت أخذ يسأل:

ـ ما هى المسافة لو أخذنا طريق الجبل؟

ـ ستكون حوالى ثلاثة فراسخ.

ـ وبالطريق العادى؟

ـ ستكون حوالى خمسة فراسخ.

أطلق الفارس العنان لحصانه:

ـ إلى الجبل!

ودون أن يتوقف اندفع فى الطريق القديم الذى يتلوى كالثعبان مجتازًا مناطق قاحلة حيث تنمو بالكاد أعشاب تندر ضاربة للصفرة. وعلى البعد أسراب متحيرة من طيور الخُطَّاف تحوم فوق مستنقع سبخى. الخادم، الذى بقى فى الخلف كثيرًا يراقب المشهد للسماء والأفق الرحب حيث تبدو الآن لمسافات طويلة جدًا حمرة الغروب، جرى ولحق بالفارس:

ـ شُدَّ على الحصان جيدًا يا سيدى، إذا شددت عليه سيكون بإمكاننا بالفعل أن نحظى بضوء القمر عند مرورنا بغابة السنديان.

وفجأة ضلا الطريق فى منعطف، بين أشجار النخيل التى تحدد معالم الطريق غير المنتظم للنهر. وأطبق الليل عليهما، وبدأت الريح تهب على نوبات تعبر سريعة ومرعدة والأشجار

تنحنى فوق الطريق وحفيف متواصل لكل أوراقهـا. والفـارس وخادمه المرافق قطعا وقتًا طويلاً فى عمق الظلام لليلـة بـلا نجوم. وبالفعل بدأ يحسان بخرير المجرى المائى الذى يغـذى الطاحونة والكتلة المظلمة لغابة السنديان، عنـدما نبـه الخـادم بصوت خافت:

ـ سيدى، خذ حذرك مما يمكن أن يقطع الطريق علينا.

ـ لا أهمية لذلك.

ـ ومن الأفضل أن تكون للأمر أهمية. مرة، كان شخص فى ظرف مشابه، وليس لهذا أيضًا أنا خائف، وفى الجسر نفسه خرج عليه رجلان وسرقاه ولم يقتلاه بمعجزة إلهية.

ـ هذه حكايات.

ـ إنها أكيدة مثلما هو مؤكد أننا جميعًا سنموت!

ظل الفارس صامتًا، وشعرا به وهو يقترب أكثر خريـر مجرى الماء المحبوس فى مذاود الطاحونة. كان خريرًا يـسوده التشتت والغموض الذى سرعان ما جعله يتوهم نباح كلب يتشمم الموت، كما يبعث عويله إنسان يسلبونه حياته. الخـادم جـرى تحت جناح الحصان وهناك فى المنخفض برزت صورة جانبية معتمة لكنيسة قرعت أجراسها ببطء مع نذر شر مـن سـحابة. غمغم الفارس:

ـ نحن الآن بالقرب من بيت رئيس الدير.

وأجابه الخادم:

ـ ضوء القمر يخدع كثيرًا، يا سيدى.

وفجأة تحركت شجيرات العليق فى مكان متفرقة بقوة، ووثب شبح فى منتصف الطريق:

ـ يداك لفوق! محفظة النقود أو حياتك.

شب الحصان، والبريق اللاهب للرصاصة أضاء بوميض أزرق الوجه الغادر باللحية السوداء للرجل الذى أمسك بشكيمة اللجام والذى تهاوى وسقط ببطء، انحنى الخادم ونظر إليه واعتقد أنه تعرف عليه.

ـ سيدى، يبدو لى أنه تشيبان.

ـ تقول من؟

ـ ابن الطحان.

ـ ليغفر الله له!

ـ آمين!

ـ هل تعرفه؟

ـ إنه نفسه شيطان!

كان ممددًا وسط الطريق وممسكًا بيده اليمنى منجلاً. وكان حافيًا وقدماه تبدوان من شمع، والفم محشوًا بالتراب، ولحيته شائطة. خيط من الدم يجرى من الجبهة. والفارس ثبت نفسه على السرج، ونخس بالمهاميز الحصان، الذى ارتجف، ووثب عاليًا. الخادم تبعه. من أحجار الطريق انبعث الشرر من تحت حوافر الحصان، والسيد والخادم تاها فى الظلام. وفجأة اكتشفا الطاحونة فى وضوح من بين فروع الأشجار التى تتضح فى ضوء القمر. كانت فى مشهد مثير للشكوك وواقعة فى منعطف. وعلى العتبة كانت امرأة عجوز تجلس وهى تغفو، تلبس مريلة مما تلبسها القرويات. وجدت فى الانتظار. سألها الخادم وهو متردد:

ـ هل يأتى المجرى بماء للطاحونة؟

اعتدلت المرأة العجوز فى جلستها وقد بوغتت:

ـ الماء لا ينقطع، يا بنى.

ـ من تنتظرين؟

ـ لا أنتظر أحدًا... خرجت من لحظة لأجلس فى ضوء القمر. عندى طحين لليل كله وعلىَّ أن أسهر.

ـ والزوج، أليس موجودًا؟

ــ ليس موجودًا. ذهب إلى المدينة ليقوم بما عليه للسيدة، سيدتى التى ندفع لها "فورو" واحدًا عن كل اثنى عشر مكيالاً من القمح واثنى عشر مكيالاً من الشَّيْلَم.

ــ واللص قاطع الطريق؟

ــ يمشى فى الليالى، أمور لصوص! استجدى علاقة مع بنت من القرية ويفعل معها أفعالاً قبيحة كل ليلة.

ــ كلام صحيح. أمور لصوص!

ــ أنا هنا فى انتظاره.

ــ انتظريه بكل توفيق.

والخادم ابتعد وهو يجرى ليدرك الفارس. لحق به وهو يلهث بجانب الحصان:

ــ ألم تحسبنى مخدوعًا، يا سيدى؟

ــ يبدو أن لا...

ــ كان هذا ما قلته!...

ــ والأم تنتظره!...

وصمتا بروحين مرتاعتين ومغلقتين بالغموض.

كانا قد تركا الطريق الذى تسلكه الأحصنة والبغال، وسلكوا الطريق الذى تسير فيه العربات عندما عبرا مع سائق

بغال، والذى كان نصف نائم فوق بغل وقد لف نفسه ببطانيــة. ووجدهما على حافة الطريق. تحدثا معًا السيد والخادم:

ـ يخرج الناس مبكرًا للسوق...

ـ لقد عرضنا أنفسنا للخطر بمصادفة سيئة.

ـ هذا ما فكرت فيه يا سيدى.

ـ أنت، الآن ستعود بالحصان. أما أنا فسآخذ المركب.

ـ ولو لم تجد هناك شباب الحزب؟

ـ سأكون، عندها على الأقل، دون رامون ماريا. ألم أقل لك ما ينتظرنى؟

ـ هذا ما قلته لى، نعم يا سيدى.

ـ كم ستكون الساعة؟

ـ عندما نعبر القرية تؤذن الديوك ساعتها.

ـ مازالت هناك ثلاث ساعات من الليل.

ـ هذا ما سيكون، هل تعرف الطريق؟

ـ أعتقد أننى أعرفه.

ـ الأحسن، تجنب ظهورك، سوف نصل إلــى الجــسر، وبعدئذٍ سأعود من الطريق العادى، لأنه طريق أكثر أمانًا.

ـ لا ترد، يا لص.

ـ أرجوك أن تقتلنى!

ـ والآن يمكنك أن تجد رفقة.

وأشار إلى راكب البغل الذى صعد الطريق الذى تحوطه المزارع، حيث ينعكس عليها ضوء القمر.

ـ يمكننى أن أرتاب!

ـ تغاضَ عن ذلك. اركب إذا أردت...

أطاع الخادم، وبقفزة واحدة صار فوق السرج وانحنى لكى يصغى إلى الفارس الذى قلده فى صوت خافت:

ـ امضِ لتحيا حياتك مطمئنًا!

وبذلك دفع له مقابل التخفى، من أجل أن يتركه يمر، ووضع إصبعًا فوق شفتيه: إلى أن أراك وحدك، ورسم على نفسه الصليب مخلصًا.

إلى أين يذهب؟ من كان؟ ربما كان لاجئًا سياسيًا. وربما هو زعيم عائد من البرتغال. لكن فى الحكايات القديمة، والطرق القديمة، لا يمكن أبدًا معرفة نهاية لها.

أبو جَدِّى

دون مانويل بيرمودث إى بولانيو، أبو جدى، كان فارسًا طويلاً، جافًا، بعينين خضراوين، الصورة الجانبية لوجهه صافية: يتكلم قليلاً، يتمشى وحده، كان مزهوًا بنفسه، عنيف، وعادل جدًا. أتذكر أنه فى أيام ما، كان بخده الأيمن طفح وردى سبب له حزنًا: عن ذلك الطفح الوردى ناس البلدة تبادلوا الهمس، إنه قُبلة الساحرات. وفى وسط الكلام جاءت لتقول الكلام نفسه عماتى المتزينات بعقدة على شعورهن. الصورة التى احتفظت بها لأبى جدى كانت لرجل عجوز فانٍ ومتعبد، حتى إنه كان يتمشى الليالى الطويلة فى جناح الكنيسة يتأمل كوكبة أبى سيف.

ما أجمل المشاعر التى أحتفظ بها عن تلك الفترة! مرجان مذهب/ كوكبة أبى سيف هو اسمك، القداسة لك يا مريم ولك المجد!. أبى سيف كنيستك بعش طيور السنونو!، مذهبة أحجارك! كل ما لك ذهبى بلدة لها السيادة!...

ومن البيت الذى كان لأبى جدى بقيت فقط دالية كروم حقيقية لا تطرح عنبًا، وعن هذه العائلة صدى قديم جدًا فى الكتب التى تخص الأبرشيات؛ لكن فيما حول سجن أبى جدى،

مازالت تحلّق أسطورة. أذكر أن كل أقاربه لديهم هذه الأسطورة عن إنسان مجنون بمزاج سوداوى. لقد كنت طفلاً وكانوا يتحاشون أن يتكلموا عنه فى حضورى، ومع ذلك فمن خلال كلمات شاردة توصلت إلى أن أبا جدى كان مسجونًا فى سجن سانتياجو. وكان موجودًا فى قلب كرب عظيم لأنه كان محكومًا عليه بسبب جريمة بعيدة، والتى خرج حرًا منها مقابل مال دفعه.

طوال ليالٍ كثيرة لم أستطع أن أنام فيها، ممعنًا التفكير فى هذا التشوش، وانقبض قلبى إذ سمعت فى الساعات المتأخرة الصوت المختلط للفارس العجوز الذى يصرخ فى نومه...

ينام أبو جدى فى صالة واسعة ببيت فى الأبعادية بالريف ويلازمه خادم على الباب، وأنا، أدرك أنه مثقل بتأنيب الضمير، ونومه قلق بسبب الأشباح وخيالات تتراءى له فى أحلامه. هذا العجوز بالغ التجهم! ما أكثر ما أحببته، وعاملته ببراءة طفل يصلّى من أجل أن تغفر له جريمته. نعم، إن يدى أبى جدى وحشيتان. أدركت ذلك بالفعل عندما عرفت أنهما تلطختا بالدم.

ذات ليلة سمعت الحكاية من العجوز القروية التى تحكى دائمًا تاريخ العائلة وهى تقوم بحياكة كيس شبكة صيدها فى قاعة انتظار الناحية. وتحكى للخدم الآخرين عن عظمة البيت

وحكايات الكبار. وعن أبى جدى ذكرت أنه كان صيادًا عظيمًا، وأنه ذات ليلة، وحينما كان عائدًا من اصطياد الحجل، خرج ينتظره فى طريق الجبل نقيب مؤجر الأرض، الذى هو صاحب الامتياز. كان رجلاً أعمى، بعكاز، وتقوده ابنته من يده، كان خالعًا غطاء رأسه عندما تقابل هو والفارس:

ـ ملاك هو الذى أتى بك إلى هذه الطرق يا سيدى!

تكلم بصوت تخنقه الدموع. ودون مانويل بيرموديث رد عليه باقتضاب وتجهم:

ـ هل ماتت أمك؟

ـ لم يأذن لها الرب!

ـ إذًا ماذا جرى لك؟

ـ بشهادة زور اثنان من أبنائى فى السجن. ويريد أن يقضى علينا كلنا الكاتب الظالم! جاء لحد أبوابنا بمنشور ملزم، ومضى يأخذ عليه توقيعاتنا بأن لا أحد سيعود ويطلق قطعان أغنامه لترعى فى المراعى الصيفية للملك.

تنهدت الفتاة التى تقود أباها:

ـ أنا رأيته على باب عمى بيدرو دى بيرمو.

اقتربت نسوة أخريات وبعض الأطفال العائدين من الجبل، مقطوعى الأنفاس تحت ثقل ما يحملونـــه مـــن قطـــع أشـــجار الصنوبر، وأحاطوا كلهم بالدون مانويل بيرموديث:

ـ والآن نحن الفقراء ليس بإمكاننا أن نعـيش. والجبـــل الذى عشنا فيه يسلبه منا لص من المدينة.

واستغاث الأعمى صارخًا:

ـ وأكثرنا قدرًا لا يتكلم ونقتلع ألسنتنا. فبكلمات مثل هذه اثنان من أبنائى فى السجن. وما إن سكت الأعمى حتى اشتكت الفتاة:

ـ لكونها واضعة يدها على الأرض فلا يأخذها رؤســـاء البلديات من أمى أجيدا.

يحكون أن أبا جدى أول ما سمع هـــذا صـــاح بـــصوت غاضب حملها على الصمت:

ـ تكلم أنت، يا سيرينين! ما الذى تريد أن تطلعنى عليه!

تفرق الجمع، والفلاح الأعمى بقى فى وســـط الطريـــق برأسه المكشوفة، الصلعة محمرَّة تحت الشمس الغاربة...

نادى سيرينين دى بريتال، وأمه، فلاحة بلغت من العمـــر مائة عام، أجيدا الجبلية. هذه المرأة كانت مرضعة لأبى جـــدى،

والتى أحبها جدًا، والتى لمرات كثيرة كان عندما يتمشى للصيد يصل إليها لزيارتها، ويجلس تحت التكعيبة التى تظلل أمام باب دارها، ويتناول وجبة خفيفة بعد العصر بصحبتها، ويأخذ لقمة من طاجن لبن.

دون مانويل بيرموديث، احتمى بظل الطريق ووقف صامتًا ومتجهمًا، واستمع إلى شكوى سيرينين دى بريتال:

ـ لقد قضوا علينا! فلم يعد لنا الآن الحق فى أن نذهب حيث نجمع قشور جذوع السنديان، ولا أن نسوق قطعان أغنامنا للرعى! وعلى الأبواب ترك إنذارات لكل الفلاحين موثق العقود الظالم الجبال التى كانت لنا، سرقت منا بواسطة أوراق مزورة، وشهادات باللسان مدفوعة الأجر، وأمام فضحنا لهذا التجبر، لى ابنان فى السجن. وما بقى لنا الآن هو فقط أن يعلقوا حجرًا فى رقابنا ويلقون بنا رأسًا فى النهر!

تصاعدت همهمات من الحشد:

ـ حظ الفقير أن يتحمل الأشغال!

ـ يوم الفقير لن تطلع له شمس!

ـ معاناة وعقاب! معاناة وعقاب، هو حكم القانون على الفقير.

النسوة اللاتى تحملن أحطابًا من أشجار السنديان متجمعات مع الأخريات العائدات من الأسواق شكلن حلقة التفت حول الفلاح الأعمى، وعلى البعد وجدت جماعة من عازقى الأرض تتنصت على حدود المزرعة، ويستريحون مستندين على فئوسهم. نظر إليهم دون مانويل بيرموديث رويدًا رويدًا، ثم قال لهم:

ــ فى يدكم الحل، لماذا لا تقتلون هذا الكلب المسعور؟

وعلى الفور سكت الجميع، لكن فجأة صرخت فيهم امرأة تركت حملها من حطب السنديان يسقط على الأرض وهى تنتش نفسها:

ــ لِمَ لا يوجد رجال، يا سيدى! لِمَ لا يوجد رجال!

ومن بعيد سُمع صوت أحد عازقى الأرض وهو يقول:

ــ الرجال موجودون، لكن أياديهم مقيَّدة .

وثارت المرأة:

ــ من قيَّدكم؟ الخوف! اخرسوا يا جبناء! بأى فم تكلمنى، عندما كلفونى فى الأرض العالية نفسها ثلاثة أبناء، وتركونى مثلما تروننى، إلا من حماية السماء ولا أكثر، هى التى تسترنى؟ اخرسوا أيها الجبناء!

امرأة عجوز، والتى جاءت إلى الطريق مخترقة حقول الذرة، ردت عليها بأصوات أخرى:

ـ لا بد من القضاء على الجلادين! لا بد من القضاء عليهم!

كانت أجيدا الجبلية تمشى مستندة إلى عصا، طويلة، ومحنية، ترتدى ملابس الحداد. والفارس تطلع إليها بنظرة مفعمة بالحنان:

ـ لماذا تحركتِ من عند بابكِ يا أجيدا؟

ـ لكى أراك، يا شمسى الذهبية!

وسيرينين دى بريتال، أدار عينيه الضريرتين إلى حيث ارتفع الصوت من صاحبة المائة عام، وصاح وكأنه يكلم الهواء:

ـ الآن علينا أن نترك القضية للسيد!

وأجيدا الجبلية كانت قد جلست فوق أحد أحجار الطريق:

ـ بعد نصيحتك علينا أن نستمر، ماذا أنتم فاعلون؟

رد عليها سيرينين وسط همهمات أصوات عديدة:

ـ الذى نبت من النبالة يمتلك إحساسًا، والآخر الذى نبت من الأرض.

أجيدا الجبلية نهضت واقفة مستندة إلى عصاها، وقد تحولت إلى امرأة عملاقة، وعلى الرغم من كونها محنية فقد تراءت بالغة الطول، بعينين سوداوين، كانت خلاسية بلون الشَّيْلَم:

ـ دون أن أسمعها، أعرف كلمات مليكى! الملك الذى أعتقد أن ما لديه من إلهام هو نفسه ما يصدر عن هذا الفم النابت من الأرض! القضاء على هؤلاء الجلادين. القضاء عليهم! دون أن أسمعها، أعرف الكلمات من مليكى!

صاح سيرينين:

ـ أنا لا أستطيع حمل أى شىء بدون نور عينى، والأبناء فى السجن!

بدأت النسوة فى الصراخ:

ـ حزم حطب السنديان هذه يجب أن تكون لحرقه حيًا، لص الفقراء هذا!

ارتفع فوق الحشد صوت مهددًا بالفعل:

ـ أين هم الرجال؟ كلهم جبناء!

وفجأة سكت الضجيج. ولسان واحد مرعب أخذ ينصح:

ــ عليكم أن تصمتوا وتعانوا. كل حياة تحمــل صــليبها! انظروا من القادم!

من أعلى الهضبة، قدم يخب فوق حمار، ظهر الراكــب، والكل تعرفوا عليه، الكاتب الموثق مالبيدو!. يحكون أن أبا جدى التفت حينذاك إلى عازقى الأرض الذين كــانوا علـــى حــدود المزرعة:

ــ عندى البندقية معمرة بالخرطوش، هل يريد أحدكم أن يفوز بصيد سمين؟

وعلى الفور سكتوا كلهم. بعدها برز واحد من بين الأكبر سنًا:

ــ الصقر يطير دائمًا فوق برج الحمام. واحــد يمــوت، والآخر يأتى.

ــ ألا تريدون أن تنتهزوا فرصة أن بندقيتى معمرة؟

أجابته أصوات متعددة بإصرار:

ــ نحن أناس فقراء يا سيدنا يا صاحب الأوقاف! أشــقياء بأنفسنا! أبناء الأرض!

أجيدا الجبلية نهضت واقفة وحجرها ممتلئ بالحجارة:

ــ أيتها النساء، هيا بنا لندفن الجلادين!

الكاتب الموثق شاهد ناسًا كثيرين على الطريق، فمال إلى أن يأخذ طريقًا مختصرًا، لكن أبا جدى أظهر أنه ينادى عليه بأصوات عالية:

ـ يا سيد مالبيدو، نحن فى انتظارك هنا لنحقق العدل الصحيح.

رد الآخر عليه بفرح شديد:

ـ أنت ترتكب خطأً بذلك يا سيد يا صاحب الأوقاف! هؤلاء الناس مصرُّون على السير فى الطريق الخطأ!

واقترب يخب فى سيره. أبو جدى ببطء شديد صوب بندقيته إلى الوجه، وعندما كان السلاح مصوبًا إليه صرخ عليه:

ـ هذه هى عدالتى يا سيد مالبيدو!

وبطلقة واحدة كوَّمه على الأرض برأسه الغارقة فى الدماء.

أجيدا الجبلية ركعت على ركبتيها وذراعاها مفتوحان، منحنية على قدمى أبى جدى، الذى وضع يده البيضاء على رأس البالغة مائة عام وقال لها:

ـ لقد أرضعتنى لبنًا طيبًا يا أم أجيدا!

ولقد هربوا كلهم، وبقى اثنان فقط فى وسط الطريق، فى مواجهة الميت.

حكت ميكائيلا لاجاليندا أنه على إثر هذا الحادث أبو جدى بقى لفترة فى سجن سانتياجو. الفعل كان مؤكدًا، لكن الدافع كان شيئًا آخر. سنوات عديدة بعد ذلك، من أجل معلومات عبقريـــة، كان علىَّ فيها أن أراجع أوراقًا قديمة، واستطعت أن أتحقق من أن هذا السجن كان ينتمى إلى حزب الرسل البابـــاويين الـــسيد كولونيل الحرس الوطنى دون مانويل بيرموديث إى بولانيـــو. كنت طالبًا عندما توصلت إلى أن أُكون فكرة صحيحة عن أبى جدى. وأعتقد أنه كان شخصية غير عادية. وهكذا قدرته فـــوق كل من هم من دمى، أن أرثه هو. والآن فـــى هـــذه الـــساعة، منتصرًا على كل من خاب أملهم، متذكرًا بزهو ذلـــك الـــزمن الشبابى، عندما كان يغيظنى أهلى كلهم، إذ تقول العجائز وهـــن يرسمن علامة الصليب: دون مانويل بيرموديث آخر! فليباركـــه الرب!

روساريتو

الفصل الأول

جالسة أمام واحدة من تلك المناضد القديمة الطراز، ذاتِ القائم الواحد بلوحة السيدات، والتى انتشرت كموضة فى أوائل القرن، ورأسها يتمايل مترنحًا من مغالبة النعاس، العجوز الكونتيسة دى ثيلا. والخصلات ذات اللون الفضى من شعرها، انفلتت من الطرحة المشغولة بالدانتيلا، تسحب بالتثاوب أوراق اللعب التى تصفها لشخص واحد، وفى الطرف الآخر من الكنبة، كانت حَفيدتها روساريتو. وعلى الرغم من أن كلتيهما سيدات خيرات، فإنه من المؤكد أن لا أحد يعيرهما انتباهًا فى حياتهما على مدى اليوم بطوله. إن الكاهن الذى يتولى شئون الرعاية الدينية للدار يقرأ بصوت عالٍ، منحنيًا فوق المنضدة، وقد زين إطار نظارته بزخارف ودعمها بذراع مسلح ذهبى. رفعت روساريتو رأسها فجأة، وبقيت كما لو أنها غائبة عما حولها، شاخصة إلى باب الجنينة الذى انفتح على خلفية من فروع أشجار داكنة وغامضة، ليست أكثر غموضًا فى الحقيقة، لأن نظرة تلك الطفلة مدركة وصريحة! رأت على ضوء المصباح

الخافت صورة مقصَّرة لرأس أشقر جميل جدًا؛ ظــل الرمــوش يهتز على الخد العاجى، والقوام الرقيق واللطيف برز على شبه الظل غير المؤكد فوق القامة الذهبية، والدمقس الأزرق السماوى للكنبة، تذكرت روساريتو أولئك السيدات الساذجات مرســومات فوق خلفية من النجوم والشهب.

أسبلت الطفلة عينيها، شاحبة، وشفتاها ترتعشان بارتجاف غريب، انفلتت منهما صرخة:

ـ يا يسوع... يا له من شيء مخيف!...

قطع الكاهن قراءته ونظر إليها من فوق نظارته وهمهم:

ـ أهو عنكبوت يا آنسة؟...

هزت روساريتو رأسها بالنفى:

ـ لا، يا سيدى، لا!

وازداد شحوب روساريتو جدًا، صوتها، المخنوق إلى حد ما، يشى بشكل غير مؤكد بالخوف والضيق. وعبثًا تحاول أن تتظاهر بالهدوء. أرادت أن تواصل شغل الإبرة الملقى على حجرها، فالرعشة المتزايدة خلال هاتين اليدين الشاحبتين، والشفافتين مثل يدى قديسة. يدان صوفيتان وحمراوان قانيتان، تبدوان نحيلتين فى الصلاة من خلال احتكاكهما وهما تُسبحان بحبات المسبحة. مستغرقة فى غيابها عما حولها، شبكت إبر الشغل فى مسند ذراع الكنبة. بعد ذلك، وبصوت واطئ وحميم، كما لو أنها تكلم نفسها، قالت وهى تتلعثم:

ـ يا يسوع!... أى شىء أكثر غرابة!

وفى الوقت نفسه أسبلت جفنيها ومررت اليدين فوق النهدين فى خطوط ببراءة وزهو... بدت وكأنها تحلم. والكاهن نظر إليها باستغراب.

ـ ما الذى جرى لكِ يا آنسة روساريتو؟

وفتحت الطفلة عينيها قليلاً وأطلقت تنهيدة:

ـ قل لى يا دون بينثيو، أتكون إشارة من العالم الآخر؟...

ـ إشارة من العالم الآخر!... ما الذى تريدين أن تقوليه حضرتك؟

قبل أن تجيب، أرسلت روساريتو نظرة أخرى إلى الجنينة الغامضة النائمة من خلال فروع أشجارها التى يتسرب منها ضوء القمر، وبعد ذلك وفى صوت خافت ومرتعش همست:

ـ أقسم أننى من لحظة حدث أن رأيته يدخل من ذلك الباب، دون ميجيل مونتينجرو...

ـ دون ميجيل يا آنسة، هل حضرتك متأكدة؟

ـ نعم إنه هو، وقد حيانى وهو يبتسم لى...

ـ لكن هل تتذكرين حضرتك الدون مونتينجرو؟ إنه هـو نفسه، مرت عليه أكثر من عشر سنوات علـى الأقـل وهـو مهاجر.

ـ صدقني يا دون بينثيو، كما لو أنني رأيته بالأمس، ولقد كنت طفلة صغيرة وذهبت مع جدي لزيارته في معتقل سانتياجو حيث حبسوه لأنه من السياسيين المنادين بالحرية، والجد نـاداه بابن العم. دون ميجيل كان طويلاً جدًا، بشارب مبروم بـشدة، وشعره أبيض ومجعد.

والكاهن أكد:

ـ بالضبط، بالضبط. من ثلاثين سنة وشعر رأسه أبيض من شعر رأسي الآن. بلا شك، حضرتك سمعت عن حكايته...

ضمت روساريتو كفيها:

ـ أوه! مرات كثيرة! الجد كان يحكيها دائمًا.

وقطعت حديثها ناظرة مباشرة إلى الكونتيـسة. والـسيدة العجوز نظرت إلى حفيدتها بشكل صارم، ومازالت لـم تـصحُ تمامًا، غمغمت:

ـ كيف تقولين مثل هذا الكلام يا بنية؟ دعي دون بينثيـو يقرأ.

أحنت روساريتو رأسها وأخذت تحرك إبر شغلها، لكــن دون بينثيو، الذى لم يكن متحمسًا لمواصلة القراءة، أغلق الكتاب وأنزل نظارته حتى طرف أنفه:

ـــ لنتكلم عن الرجل الشهير دون ميجيــل، يــا ســيدتى الكونتيسة. دون ميجيل مونتينجرو، صهر، إن لم أكن مخدوعًا، البيت الكريم الأصل للكونت دى ثيلا...

السيدة العجوز الكبيرة قاطعته:

ـــ وإلى أين سيمضى حديث حضرتك فى البحث؟ وأيضًا حضرتك عندك خبر بأن ابن عمى ملحد؟ أنا عارفة بأنه هنا فى البلد، وأنه يتآمر وقسيس ثيلا الذى عرفه جيدًا فى البرتغال، قد رآه فى مولد باربانثون، متنكرًا فى هيئة محتال.

خلع دون بينثيو نظارته تمامًا:

ـــ همم! عندى خبر، وخبر عن الأمور الأكثــر غرابــة. لكن ألا يكون الأمر اختلط على قسيس ثيلا؟...

هزت الكونتيسة كتفيها:

ـــ ماذا؟ أتشك فى هذا حضرتك؟ لكن أنا لا أشك. أعرف إلى حد التخمة السيد ابن عمى!

ـ السنوات تفتت الصخور، يا سيدتى الكونتيسة، لقد أمضيت أربع سنوات سائرًا فى جبال ثابارًا والسلاح فوق كتفى، واليوم خلال سنوات أخرى أجتهد فى عملى، مكتفيًا بأن أطلب من الرب فى صلاة القداس النصر للقضية المقدسة.

ابتسامة متعالية بدت فى الفم عديم الأسنان (الأدْرَد) للسيدة العجوز ذات النسب:

ـ لكن هل تريد حضرتك أن تقارنه بك، يا دون بينثيو؟... بالتأكيد أنه فى حالة ابن عمى، كل شىء يمكن النظر إليه قبل أن يتخطى الحد، لكن هذا الفرع من آل مونتينجرو فرع مجانين. عمى دون خوسيه كان مجنونًا، وابنه كان مجنونًا، وأحفاده سيكونون مجانين، وحضرتك ستسمع ألف مرة فى بيت القساوسة وهم يتكلمون عن دون ميجيل، ثم إن كل ما عددته، لا يساوى شيئًا مقارنة بما فعله ذلك الرجل.

كرر رجل الدين بصوت معتدل:

ـ بالفعل أنا عارف، أنا عارف، ولدىَّ خوف شديد، إنه رجل مزعج، متحرر، ماسونى!

تطلعت الكونتيسة بعينيها إلى السماء وتنهدت:

ـ هل سيأتى إلى دارنا؟ كيف يبدو لك حضرتك؟

ـ من يعرف؟ يعرف القلب الطيب لسيدتى الكونتيسة.

أخرج الكاهن من جيب سترته الدينية منديلاً كبيرًا بمربعات زرقاء، ونفضه فى الهواء بكل رشاقة، وبعد أن مسح به صلعته:

ـ لسوف تكون كارثة حقيقية! لو أن سيدتى أخذت بنصيحتى، تقفل الباب فى وجهه.

أطلقت روساريتو تنهيدة. نظرت جدتها إليها بشكل صارم ونقرت بأصابعها على ذراع الكنبة.

ـ ذلك الذى قلته حالاً، يا دون بينثيو. هذه النظرة تعنى أن حضرتك لا تعرفه، فأنا سأقفل الباب فى وجهه، وهو سيخلعه ويسقطه أرضًا، وعلاوة على ذلك، يجب أن أنسى أنه ابن عمى.

رفعت روساريتو رأسها. وفى فم الطفلة رفت ابتسامة شاحبة للقلوب الحزينة، وفى العمق الغامض لحدقتيها برقت دمعة لم تنزل. وفجأة ارتفعت صرخة وكان على عتبة باب الجنينة رجل يقف بشعر أبيض، تمثال لرجل أنيق، وقوام مازال رائع الجمال، ومنتصب.

الفصل الثالث

دون مونتينجرو كان قد قارب الستين عامًا. وهو من هذا النوع الجميل والرجولى (من نسل أمة جرمانية غزت إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى معروف جدًا من أعيان جبال جليقيــة). وهو ناظر وقف لعائلة عريقة ذات نسب، وشعارها يبرق بستة عشر مربعًا من النبالة وتــاج ملكــى للــرئيس. دون ميجيــل، بفضيحة مدوية لأقربائه، وأقرباء أقربائه، عنــد عودتــه مــن هجرته الأولى أتلف الأسلحة التى ظهــرت فــوق بوابــة دار الأعيان، بيت كبير آيــل للــسقوط، أمــر ببنائــه المارشـــال مونتينجرو، الذى كان من المشاركين فى حروب فيليب الخامس وكان الأكثر شهرة فيهم من ناحية نسبه، وبقيت ذكراه فى البلــد محفوظة، هنا السيد العظيم غريب الأطوار، المستبد، والصياد، السكير المضياف. دون ميجيل فى الثلاثين من عمره بدد بــثمن بخس ميراثه، واحتفظ فقط بالإيجارات، وأراضى الوقف، الدار الكبيرة، وأملاك موقوفة لخدمة العبادة، وذلك كله هو الذى بالكاد يوفر له الطعام. وحينئذٍ بدأت حياته كمتــآمر ومغــامر، حيــاة تملؤها بشدة المخاطر والنكبات مثل تلك الحياة لكل الأبناء غير البكر لوالدهم من الأعيان، والذين يلتحقون بالجمعيات الأخويــة الدينية فى إيطاليا للبحث عن تصيُّد الحب، بالسيف، أو بالمــال.

ليبرالى عميل فى الماسونية، يتصنع الاستخفاف بكل مآثر النبلاء. ما لم يمنعه من أن يكون متعاليًا وقاسيًا مثل عربى نبيل. وفي داخله يشعر بالزهو بنسبه. على الرغم من إنصافه الدانتونى (أتباع دانتون)، فإنه يتلذذ باستعراض أسطورة شعار الأسرة الذى ينحدر من آل مونتينجرو من إمبراطورة ألمانية. ويحب مصاهرة البيوت الأكثر نبالة فى جاليثيا. ومنذ الكونت دى ثيلا إلى دى ألتاميرا معهم كلهم يتساوى، وبالنسبة للكل فهم بالنسبة له أبناء عم. وكما تتساوى بينهم الملوك. وعلى العكس لا يقدر الأعيان جيرانه، ويثرثر معهم وهم جالسون حول مائدته ويجعل الخدم يجالسونه. وكان ذلك أمرًا من وجهة نظر دون ميجيل إقامة المساواة كمبدأ أعلى، ويزيد الطين بلة فيصيح، بذلك التضخيم للصوت لسيد عظيم لكى يثير دهشة ضيوفه:

ـ فى بيتى، يا سادة، كل الرجال متساوون. هنا قانون الحكمة للفيلسوف جوديا.

دون ميجيل كان واحدًا من أولئك المجانين من عرق طيب، بسلوكه كسيد عظيم، له ذكاء شاعر شعبى متجول، وعزم قرصان. ويثير جلبة متواصلة حول نفسه تستمر دون سبب أو موضوع بالغ الطيش كما فى مزاحه، يثير الضوضاء مثلما هو مكفهر، تحزنه أمور غريبة فى الحقيقة وعندما يعود إلى الصورة المتخيلة عنه تكتشف الفعل الأسطورة. والليبراليون

القدامى المؤيدون لريجيو يحكون عنه أنه قد ابيض شعره منذ أن حكم عليه بالموت، وبقى متحفِّظًا عليه ثلاثة أيام فى انتظار تنفيذ الحكم بإعدامه، وترتب على ذلك أن قـــرر الهـــرب، وهـــرب بمعجزة لجسارته. لكن البغايا من أهل إقليمه، وهن جدات الآن، يتنهدن عندما يتلون عن ظهر قلب لأحفادهن أشـــعار الـــشاعر الجوال، وقد أظهرن شيئًا فائق الجمال... لقد حدث ذلـــك فـــى الأزمنة الطيبة للرومانتيكية، وكان بالتحديد يفترض أنه ضـــحية لوقائع حب مأساوية. كم من المرات ســـمعت روســـاريتو فـــى سهرات السمر عن أجدادها حكاية أولئك ذوى الشعر الأبـــيض! حكتها دائمًا عمتها ــ أمادا دى كاماراسا ــ آنسة فى الخمـــسين من عمرها والتى تقرأ الروايات وهى تتحرق شوقًا، بمـــشاعر طالبة جامعية ساكنة فى بيت الطالبات، وغير مجربة، ومازالت تعزف فى قاعات استقبال النساء الارستقراطيين لكومبوســـتيلا الكئيبة ألحانًا سنة ثلاثين. أمادا دى كاماراسا تعرفت علـــى دون ميجيل فى لشبونة عندما تم زفاف الأمير دون ميجيل. كانت هى شابة صغيرة، وقد ظلت حاضرة جدًا الشخصية المتجهمة لـــذلك المهاجر الإسبانى، بقامته الفارعة المنتصبة، ووقفته المتعاليـــة، والذى يتمشى كل صباح مع الـــشاعر إســـبرونثيذا فـــى فنـــاء الكاتدرائية. ولا يخطو خطوة دون أن يخبط الأرض بـــالطرف المكسو بالجلد لعصا من الغاب الهندى. أمادا دى كاماراسا لـــم

تستطع إلا أن تتنهد دائمًا، على الأقل عندما تستحضر ذكـــرى السنوات السعيدة التى قضتها فى لشبونة. ربما تعود وترى بعين خيالها، وبشكل مؤكد، السيد ذا النسب، البرتغـــالي لوســـيتانو ذا الوجه الأسمر، والشفة المعشوقة، والذى كان الحب الوحيد فـــى شبابها، ولكن هذه حكاية أخرى، ولا أحد يحب أن يراهـــا مـــع حكاية دون ميجيل دى مونتينجرو.

الفصل الرابع

النبيل صاحب الوقف كان قد انتصب فى وسط فضاء الصالة، وحيا بانحناءة من قامته الطويلة، محبوسًا فى بالطو ميرى طويل.

ـ مساء الخير يا كونتيسة ثيلا، أنا هنا، ابن عمك مونتينجرو القادم من البرتغال!

صوته الرنان فى وسط السكون المخيم فى الصالة الواسعة والمعتمة لدار الأعيان، بدا أكثر قدرة، أكثر اعتدادًا بالنفس، والكونتيسة دون أن تكشف عن استغرابها، ردت عليه بجفاء:

ـ مساء النور يا سيدى.

مسد دون ميجيل شاربه، كرجل اعتاد منهم مثل هذا النفور، وكان عليه بالكاد أن يحتملهم. من قديم وهم يستقبلونه بطريقة مماثلة فى بيت أقاربه وجيرانه، دون أن يبدوا أبدًا رغبة فى ضمه إلى صدورهم. أقنعت بنفسها الخدم بأن يطيعوها، وأكدت على الشباب بوضوح أن يبدوا صدودهم للسيد العظيم. وكان ذلك لترى كيف يرى هؤلاء الأعيان الفلاحين أنهم لن يخرجوا أبدًا من جحورهم لينتهوا فى تواضع أمام الرشاقة

الفروسية والصوت المفخم للعجوز الليبرالى، وحياته فى التآمر، مليئة بالمآثر المجهولة، يجذبهم إليه سلطة بإيعاز غامض. دون ميجيل اقترب بسرعة من الكونتيسة وأخذ يدها فى جو لطيف مجامل وعائلى:

ــ أنتظر منكِ، يا ابنة عمى، أن تتكرمى باستضافتى لليلة واحدة. هكذا كان يتكلم، بوقار متكلف لرجل عجوز ظريف، وجرَّ كرسيًا مسكوفيًا ثقيلاً بجوار الكنبة، وعلى الفور دون أن ينتظر إجابة، التفت إلى روساريتو.

لعله أحس بوطأة الجاذبية المغناطيسية لتلك الفطرة التى يمتلكها فضول العذراء والعشق من المرأة! وضع المهاجر يده فوق الرأس الشقراء الصغيرة، مما أجبرها على أن ترفع عينيها إليه، وبذلك اللطف، حسن الذوق، والظرف للرجال الشيوخ الذين عشقوا وغازلوا الكثيرات فى شبابهم، نطق كلماته بصوت هادىء، الصوت العميق الحزين الذى يذكّر بالماضى!

ــ أنتِ لا تعرفيننى، حقيقة، يا ابنتى؟ لكن أنا أعرفكِ، لقد تعرفت إليكِ فى مكان ما، لقد ظهرت كثيرًا مع عمتك، أخت جدك، والتى لا يمكنك أن تعرفيها الآن! اسمكِ روساريتو، حقيقى؟

ــ نعم يا سيدى.

التفت دون ميجيل إلى الكونتيسة:

ـ هل تعرفين، يا ابنة عمى، أن الصغيرة بالغة الجمال؟

وحرك رأسه الفضية كاملة الرجولة، مواصلاً الكلام كما لو كان يكلم نفسه:

ـ جمال فائق لكى يمكن أن يجعلها سعيدة!

والكونتيسة مجاملة فى حالة الزهو التى لجدة التفتت برفق، وهى تبتسم لحفيدتها:

ـ لا تُدِرْ رأسى، يا ابن عمى، فهى ستكون جميلة، أما الذى سيجعلها بالغة الجمال فهو شىء قليل من كثير طيب!

واللاجئ السياسى جلس بطريقة مسرحية غامضة، وبقى متأملاً فى الفتاة الصغيرة، التى كانت بعينيها المطأطئتين، تحرك إبر شغلها، مرتعشة، بطيئة الحركة. هل خمن العجوز/ الليبرالى ما أحدثه فى ما جرى لتلك الروح البالغة النقاء؟ هل لديه، مثل كل المغوين الكبار، هذا الحدس الخفى الذى يقرأ فيه الحميمية التى فى القلوب ويعرف الساعات المناسبة فى الحب؟ وذلك أنها كانت ابتسامة لا توصف، شجاعة رفت للحظة تحت الشارب الأبيض للرجل النبيل، وأن عينيه الخضراوين –، المتعاليتين بإباء كما لو كانتا لطاغية أو لقرصان ـ باستعراض دون خوانى فوق تلك الرأس الحزينة المنحنية، التى بخصلتها الذهبية،

مفروقة بخط دقيق، تمتلك طهارة مؤكدة للرسوم السابقة لرفاييل، لكن الابتسامة والنظرة للاجئ السياسى برقتا بشروره، وحوادث هروبه.

استرد، دون ميجيل، على الفور مقامه كرجل عظيم/ كبير وانحنى أمام الكونتيسة:

ـ عفوًا يا ابنة عمى، إننى حتى الآن لم أسألكِ عن ابـن عمى الكونت دى ثيلا.

السيدة الكبيرة تنهدت رافعة عينيها إلى السماء:

ـ آى! الكونت دى ثيلا، هو منذ زمـن طويـل ابنـى بدرو!...

النبيل صاحب الوقف اعتدل فـى كرسـيه، وهـو يـدق الأرض بطرف عصاه:

ـ الله حى! فى المنفى/ الهجرة لا أحد يعلم شيئًا. بالكـاد يصل خبر... مسكين صديقى! نحن لسنا أكثر من تراب!

قطب الحاجبين، واستند بيديـه إلـى القبـضة الذهبيـة لعصاته، وأضاف بتبجح:

ـ لو كنت عرفته قبل ذلك، صدقينى أننى لم أكن لأنـال شرف استضافتكِ لى فى قصركِ.

ــ لماذا؟

ــ لأنك ما حملت لى أبدًا مشاعر طيبة. وفى ذلك أنــتِ من العائلة!

السيدة النبيلة ابتسمت بحزن:

ــ أنت من تنكرت للجميع. لكن فيم جئت لتتــذكر ذلــك الآن؟ حاسب نفسك عما فعلته للرب فى حياتك؟ وعندئذٍ......

انحنى دون ميجيل بسخرية لاذعة:

ــ أقسم لكِ، يا ابنة عمى، أننى كلما وجدت وقتًا، أبــدى ندمى.

خادم الكنيسة، الذى لم تخرج كلمة من بين شفتيه، التفــت إليه بوجه بشوش، وبلطف حتى يزيل الخوف من حماسه النبيل

ــ أتباع فلسفة فولتير، يا دون ميجيل، أتباع فلسفة فولتير، والذين بعد ذلك، فى ساعة الموت...

ودون ميجيل لم يرد. وفى عينى روساريتو! انتهى من أن يقرأ، رجاءً خائفًا، ومحترقًا مرة واحدة. العجوز الحر نظر إلى رجل الدين من فوق لتحت، واستدار إلى الفتاة الصغيرة، التــى ترتجف، وأجاب وهو يبتسم:

ـ لا تخافى، يا صغيرتى! ولو أننى لا أؤمن بالرب، إلا أننى أحب الملائكة...

ورجل الدين، بنفس درجة الصوت التى تستميل السامع، والصريحة، عاد ليكرر:

ـ أتباع فلسفة فولتير، يا دون ميجيل!، أتباع فلسفة فولتير فى فرنسا!...

تدخلت الكونتيسة بطريقة خشنة إلى حد ما، موجهة كلامها إليه بنفسها:

ـ إن الكفرة، عديمى التقوى، الذين يغازلون النساء، اللاجئ السياسى الذى يبعث فى الآخرين خوفًا مبهمًا... ثم أضافت:

ـ فلنتركه، يا دون بينثيو! فلا هو سيقنعنا، ولا نحن سنقنعه...

ابتسم دون ميجيل بسخرية لطيفة:

ـ شكرًا، يا ابنة عمى، بهذا الحكم المشمول بالنفاذ الذى منحته لأفكارى. إذ إننى رأيت بالفعل كم هى فصاحة خادم كنيستك!

ابتسمت الكونتيسة ببرود من أطراف شفتيها. ووجهت نظرة آمرة إلى رجل الدين بأن يلتزم الصمت.

بعد ذلك، تعمدت أن تتصرف بشكل صارم تكسوه أمارات الحزن، ترسمها عادة السيدات اللواتى فى سن الثلاثين وهن يستقبلن الضيوف الرجال فى قاعة الاستقبال. وغمغمت:

ـ عندما أفكر فى الزمن الذى مضى والذى لم نكن نراك فيه! من أين خرجت علينا الآن؟ وما السبب الجنونى الذى أتى بك إلينا؟ أيها اللاجئون السياسيون، ألا تتعبون أبدًا!...

ـ انقضت سنواتى فى كفاح بالفعل... والآن أنا لست ذلك الذى كان معروفًا لكِ... لقد عبرت الحدود، وقد عبرت وحدى لأقوم بمساعدة بنت يتيمة لأحد اللاجئين المهاجرين، والذى اغتاله طلاب كويمبرا، وبمجرد انتهائى من هذا الواجب، فإننى سأعود إلى البرتغال.

ـ لو كان الأمر كذلك، فليكن الرب معك!...

ساعة قديمة دقت العاشرة أثناء الحديث بعد تناول الطعام. كانت من الفضة المذهبة ومن ذوق ثقيل وباروكى، كعمل من القرن الثامن عشر. صورة باكو مزينة بأوراق العنب. ونائمًا فوق نفق. والكونتيسة عدت الساعات بصوت عالٍ، وعادت إلى المسألة التى كانت تتحدث فيها:

ـ أنا عارفة أنك كنت قد مررت بسانتياجو، وأنك بعد ذلك كنت موجود فى سوق باربانثون، متنكرًا فى هيئة بائع محتال، ومعلوماتى كانت أنك كنت مشتركًا فى مؤامرة.

ـ بالفعل أنا أعرف أن ذلك قد قيل.

ـ بالنسبة لك، محاكمتك فى قدرة الجميع، أقله أنك مارست دور الداعى لمحبة الله والغير كمبشر...

والسيدة النبيلة ضحكت بعدم تصديق وبعد ذلك بلحظة، أضافت، خافضة وهى فاقدة الإحساس صوتها:

ـ وتكون القضية أنه لا يمكن الاحتفاظ بالرأس ونحن واثقون جدًا فوق الأكتاف!

وخلف قناع قِلَّة الاكتراث مع ما تحب أن تكسو به كلماتها، مظهرة الاهتمام والتأثير.

ودون ميجيل هادئًا وبنفس درجة الصوت السرية، متجولاً بنظراته فى الصالة.

ــ والآن أنتِ فاهمة أننى جئت هاربًا! أنا فى حاجة إلى حصان لكى أرجع به فى الغد نفسه إلى الحدود.

ــ غدًا.

ــ غدًا.

فكرت الكونتيسة للحظة:

ــ فى هذه الحالة فليس لدينا فى الدار ولا حتى ركوبة سيئة!...

ومثلما لاحظت أن اللاجئ السياسى قطب جبينه، أضافت:

ــ تخطئ إن شككت فى ذلك، وأنت نفسك يمكنك أن تنزل إلى الإسطبل وتراه.

ولقد وقع حادث من شهر، إذ مرَّت من هنا وهى تفتش وتستولى على ما تجده عصابة الأبتر (مقطوع اليد) وأخذت

معها الفرستين اللتين كانتا لدينا. ولا أريد أن أعود للشراء، لأنها وضحت لي أنها ستعيدهما إليَّ في يوم أفضل.

قاطعها دون ميجيل:

ـ ولا يوجد في القرية من يعير حصاناً إلى الكونتيسة دي ثيلا؟

وعلى سؤال النبيل صاحب الوقف مرت لحظة من الصمت.

كل الرءوس كانت منحنية، وبدت وكأنها تقيس الأمر. وروساريتو التي كانت جالسة فوق الكنبة بجوار السيدة الكبيرة بيديها المتقاطعتين وقد وقع شغل الابرة في حجرها. تنهدت بخوف:

ـ جدتي، أمين المخازن لديه حصان لا يجرؤ أحد على ركوبه.

وبوجه تكسوه حمرة الخجل انفرج الفم، فم المادونا، وفي عمق العينين الغامضتين المتغيرتين، التصقت روساريتو بجسد جدتها كما لو أنها تلتمس الحماية من خطر تتعرض له. دون ميجيل أدخل الخوف إلى قلبها! لكنه خوف إيعازي، خوف فاتن، أخاذ. تمنت لو أنها لم تعرفه. والتفكير في أنه سيتمكن من الذهاب أحزنها. بدا لها مثل البطل في قصة رهيبة، وجمال

حكايتها جعلها تسمعها وهى ترتعش، وبالرغم من ذلك، احتفظت بشجاعتها حتى النهاية، بقوة ساحرة، والآن كان قد مسد الشارب المسترسل وببسالة رفعه فوق شفته. تصرفه كان مثيرًا لثرثـرة فارغة:

ـ الله حى! الحصان الذى لا يجرؤ أمـين المخـازن أن يركبه تقريبًا. لا بد أن يكون إنسانًا جاهلاً أو أخرق. وها أنـذا، يا عزيزتى؛ وهذا هو الحصان الذى يلائمنى!

حركت الكونتيسة فى غفلة منهـا بعـض أوراق اللعـب المقسمة للاعب واحد، وعندما انتهت من ذلك للحظة، كما لـو كان التفكير والكلمات يأتيان من بعيد جدًا، توجهت إلـى خـادم الكنيسة:

ـ دون بينثيو، سيكون من اللازم أن تذهب حضرتك إلى بيت راعى الكنيسة وتتكلم مع أمين المخازن.

ودون بينثيو سكن، وهو يحرك أوراق السنة الميلادية:

ـ سأفعل ما رتبت له السيدة الكونتيسة؛ لكـن مراعـاة لرأيكِ الأفضل، فرأيى أن ننتبه أكثر لوجود رسالة لسموكم.

وهنا رفع رجـل الـدين الـرأس المقبولـة فـى سـلك الإكليركيين، وعندما لاحظ الإشارة إلى عدم اقتناع السيدة بمـا سمعته منه، بادر إلى القول:

ـ اسمحى لى، يا سيدتى الكونتيسة، بأن أفسر لك المسألة. ففى يوم سان ثيدران ذهبنا معًا للصيد. بين أمين المخازن وخادم دى ثيلا، وكنا التقينا فى الجبل، وقد دبرا لى حيلة شيطانية. وطوال النهار ظلا يضحكان. مع سنواتهما الستين التى يحملانها على عاتقهما فالاثنان يمتلكان الحس الساخر الذى للصوص! فإذا ذهبت الآن بنفسى إلى بيت راعى الكنيسة، أطلب الحصان، فمن المؤكد أنهما سيأخذان فى الحديث عنه. إنه إنسان داهية هذا العجوز جدًا السيد أمين المخازن!

همست روساريتو بلهفة لكى تسمع السيدة الكبيرة:

ـ جدتى، اكتبى له حضرتك...

واليد المرتعشة للكونتيسة داعبت الرأس الشقراء لحفيدتها:

ـ طبعًا يا ابنتى!...

والكونتيسة دى ثيلا، التى قضت أعوامًا عديدة مهددة بالشلل، صارمة وبدون مساعدة، تقدمت خادم الكنيسة وعبرت الصالة، وبانحناءة نبيلة فوق حقيبتها، واحدة من تلك الحقائب كما لو كانت آتية من المصحات، بجيب من القطيفة القرمزية والمزينة بمسامير من الفضة.

من العمق المعتم للحديقة، حيث الجداجد تعزف سيرينادا، تأتى أصوات هامسة وروائح ذكية تحملها نسائم رقيقة تهب فتجعل الغصون تهتز، دون أن توقظ الطيور النائمة فوقها. أحياناً، ينفرج ورق الشجر وهو يخشخش وينفد من بينه شعاع من ضوء القمر، الذى يتكسر فوق مقعد حجرى، ويختفى جسد فى الظلمة الخفية. الحديقة مفعمة برائحة ذكية، وتلك الإشارات الليلية، ومفعمة بالشهوة والاسترخاء وذلك الشعاع القمرى، وتلك العزلة، وذلك الغموض تحمل ما يشبه إثارة مشاعر رومانتيكية للمواعيد الغرامية، فى قرون المغنين الشعبيين الجوالين. نهض دون ميجيل من كرسيه، ومسيطرًا عليه ذهول غريب، بدأ يتمشى مكفهرًا وصموتًا. ارتجت الأرضية تحت مشيته العسكرية، وارتجت ترابيزات (كونسول) قديمة الطراز، والتى تبدو عالية بما تحمله من تماثيل من طراز الركوكو، الطوانيس، والزهريات. عينا الفتاة الصغيرة تابعتاه خائفتين وغائبتين عن الوعى فى الذهاب والإياب لذلك الشخص الغامض: فإذا اقترب اللاجئ السياسى من النور، لا تجرؤ أن تنظر إليه، وإذا تلاشى فى العتمة، تبحث عنه بجزع.

دون ميجيل توقف فى منتصف الصالة، وروساريتو من تحت أهدابها استعجلته. ابتسم صاحب الوقف متأملاً هذه الرأس الشقراء الأنيقة، التى تنحنى مثل زئبق من الذهب، وبعد لحظة انتهى إلى أن قال:

ــ انظرى إلىَّ يا ابنتى! فعيناك تذكراننى بعينين بكتا كثيرًا لى!

لدون ميجيل إشارات تراجيدية وعبارات خبيثة وبها مرض للرومانتيكيين المغوين، فكان قد تعرف فى شبابه على لورد بايرون وتأثير الشاعر الإنجليزى بشكل نهائى. أهداب روساريتو قاربت خدها بخوف وخفقان قلب وبدت منحنية كأهداب مبتدئة فى سلك الرهبنة. واللاجئ السياسى هز شعر رأسه الأبيض، ذلك الشعر الذى كثيرًا ما ذكَّر الفتاة الصغيرة بالقصص الروائية أثناء السهرة، وذهب ليجلس على الكنبة:

ــ لو جاءوا ليقبضوا علىَّ، ما الذى ستفعلينه؟ هل ستجرؤين على إخفائى فى غرفة نومكِ؟ إحدى العابدات فى سان بايو أنقذت بتلك الطريقة حياة جدكِ!...

لم تجب روساريتو. وهى، ببراءة شديدة، أحسست بنار حمرة الخجل فى جسدها كله. والعجوز الليبرالى حدق فيها بشدة كما لو كان ذلك فقط بحثًا عن إقلاقها أكثر. أسر هاتين العينين

الخضراوين كان فى وقت ما غامضًا ومغويًا، عينـــان مقلقتـــان وجسورتان: يتركهما ليسرى الحب منهما كالسم، كـــى تهتكـــا الأرواح وتسرقا القبلات من الأفواه الطاهرة. بعد ذلك بلحظـــة، أضاف بابتسامة مريرة:

ـــ اسمعى لما سوف أقوله لكِ. إذا جاءوا ليقبضوا علـــىّ، فسوف يقتلوننى. وحياتى الآن لا يمكنها أن تطـــول، أو تكـــون سعيدة، وهنا، ها هى يداكِ الرحيمتان لتدفنانى!...

وكما لو أنها تريد أن تبعد الأفكار السوداء هزت رأســـها بحركة حاسمة وجميلة، وطرحت إلى الوراء خصلات شـــعرها التى كانت تحجب جبينها، جبين عالٍ خالٍ من الزينة والذى يبدو موصدًا أمام المبالغات كلها، وتصرفات الجنون كلها، وكل مـــا شغله هو الحب عن الكراهية، والـــسماوى عـــن الـــشيطانى... وهمست روساريتو تقريبًا بلا صوت:

ـــ سأهب نفسى راهبة مبتدئة للعذراء لكى أنقذ حضرتك بالعمل الصالح من المخاطر العديدة!...

موجة لايمكن وصفها من الحنو أغرقتهـــا بغـــرق بـــالغ العذوبة، وأحست بنفسها فريسة لتشوش غريب، وســـرعان مـــا انخرطت فى البكاء، لا تعرف لو أن ذلك من الجـــزع، أو مـــن الندم، أو من الرقة، وقد حرك أعمق ما فى كيانها، باضـــطراب

غامض، وحتى ذلك الحين ما من رغبـــة ولا حـــضور. ونـــار حمرة الخجل أحرقت خديها، والقلب يريد أن يطفر قـــافزًا مـــن صدرها، وغصة من سكرات الموت الربانية ضـــغطت علـــى حنجرتها، وقشعريرة خفية جرت فى بدنها. مرتعشة، بالارتعاشة التى تسبق الرجل عند دخوله بالعذراوات، راغبة فى أن تهرب من تلكما العينين القاهرتين، اللتين، دائمًا، ما تحدقان فيها، لكـــن الساحر واللاجئ السياسى المهاجر يقاوم، ويستحوذ عليها تمامًا بإشارة غريبة من عاشق طاغية، وهى باكية، متلاشية، غطـــت وجهها باليدين. اليدان الجميلتان لراهبـــة مبتدئـــة، شـــاحبتان، متصوفتان، محمرتان بشدة.

الفصل السابع

ظهرت الكونتيسة فى باب الغرفة، حيث توقفت وهى تلهث خائرة القوى:

ــ روساريتو، ابنتى، تعالى وأعطنى الحضن!...

وبالعكاز أبعدت ستار الباب وعليه شعار العائلة. وروساريتو مسحت الدموع من عينيها، وجاءت إليها بسرعة. والسيدة النبيلة، استندت بيدها اليمنى البيضاء المرتجفة إلى كتف حفيدتها، واستردت أنفاسها وهى تتنفس الصعداء:

هناك ذهب فى طريق بيت راعى الكنيسة بتلك السعادة الدون بينثيو!...

بعد أن بحثت عيناها عن اللاجئ السياسى:

ــ وأنت، من الآن حتى الغد أليس من المفترض أن تفكر جيدًا فى طريقة؟ هنا أنت تكون فى مأمن كما لو أنك لست موجودًا فى أى مكان.

وعلى شفتى دون ميجيل بدت ابتسامة الاستهانة الجميلة. فم ذلك النبيل المغامر صدرت عنه الأمارة التى بها تحدى السادة العظماء الموت. دون رودريجو كالديمون لا بد أنه ابتسم

ابتسامة مثل هذه فوق منصة الإعدام. والكونتيسة تركت نفسها تسقط فوق الكنبة، مضيفة بسخرية رقيقة:

ـ لقد أمرتهم بأن يرتبوا الحجرة التى عاش فيها، حسب ما علمنا، فراى دييجو دى قادش عندما كان فى البيت الريفى هذا. ولقد بدت لى أن حجرة القديس هى أحسن غرفة تليق بسموك...

وأنهت عبارتها بابتسامة. وصاحب الوقف انحنى لها مؤكدًا كونه مازحًا كبيرًا:

ـ لا بد أنِ القديسين بدأوا حياتهم خطاةً كبارًا.

ـ لو فراى دييجو أراد أن يعمل معك معجزة!

ـ نحن فى انتظاره، يا ابنة عمى.

ـ أنا التى أنتظره!

والعجوز المتآمر، تغير فجأة وبشكل عبقرى، وشرح لها مؤكدًا بشدة:

ـ عشرة فراسخ قطعتها ماشيًا مجتازًا أكمات وأراضى وعرةً وأنا أكثر من مطحون، يا ابنة عمى!

كان دون ميجيل واقفًا على قدميه. والكونتيسة قاطعته وهى تغمغم:

ـ ليحمنا الرب مع الحياة التى حملتك إلينا!... إذًا أنت بحاجة إلى أن تتماسك وتستعيد قواك من أجل الغد.

وبعد ذلك، التفتت إلى حفيدتها، وأضافت:

ـ وأنتِ ستنيرين له الطريق وترشدينه، يا صغيرتى.

أومأت روساريتو برأسها، كما يفعل الأطفال الخائفون، وراحت تشعل واحدًا من الشمعدانات الموضوعة فوق الترابيزة الكونسول التى تقع أمام غرفة استقبال النساء وهى ترتعد مثل إنسان مصفد اليدين، تقدمت نحو الباب، حيث كان عليها الانتظار ريثما ينتهى الحديث الذى كان صاحب الوقف والكونتيسة يتجاذبان أطرافه بصوت خافت.

وروساريتو بالكاد، لمحت همسًا غامضًا، وأسندت رأسها على الحائط وهى تتنهد، وأطبقت جفنيها، وأحست بنفسها فريسة لاضطراب ملأها بنبضات مسموعة ومرتبكة. وبهذا الوضع لعمود بشكل فتاة بدت بشكل مثالى على صلة بالآخر. كانت شديدة الشحوب وشديدة الحزن، لدرجة أنها لم يكن باستطاعتها أن تتأمل نفسها للحظة دون أن تشعر بأن قلبها يتحمل فوق طاقته فى فكرتها عن الموت... ونادتها جدتها:

ـ ماذا بكِ يا صغيرتى؟

وكانت كل إجابة روساريتو هى أن انفرجت شفتاها وهى تبتسم فى حزن. والسيدة الكبيرة حركت رأسها بعدم رضًا منها، واستدارت إلى دون ميجيل:

ـ بالنسبة لك، مازلت أنتظر أن أراك صباح الغد، فخادم الكنيسة سيقيم لنا قداس الفجر فى الكنيسة الصغيرة، وأحب أن تستمع إلى القداس...

وانحنى لها صاحب الوقف، الانحناءة التى يمكنه أن ينحنى بها أمام ملكة. بعد ذلك، بتلك المشية المتعالية السامية التى تنسجم تمامًا مع طبيعة روحه، عبر الصالة. عندما كانت تنسدل الستارة خلفه، كانت الكونتيسة دى ثيلا تمسح قطرات من دموعها.

ـ أية حياة، يا إلهى! أية حياة!

الفصل الثامن

صالة الدار الريفية ــ تلك الصالة الكبيرة المزينة بمــرآة بمصباح ولوحات شخصية لجنرالات، ولــسيدات، وأســاقفة ــ راقدة فى شبه ظل مرتعش. السيدة الكبيرة الكونتيسة غافية على الكنبة. وفوق المائدة الصغيرة ذات القائمة الواحدة يظهر تــأثير مشابه لعصا صاحب الوقف وشغل الإبرة (التريكــو) الخــاص بروساريتو، جسد من الظلال يهتز بين الستائر الثقيلة. وهنا كل شيء غارق فى نوم ثقيل حتى إنه فجأة فتحت الكونتيسة عينيها وركزت ناظريها بفزع فى باب الحديقة. وخيل إليها أنها سمعت صرخة فى أحلامها، واحدة من تلك الصرخات الليلية، بنطــق غير واضح المعالم وعلاوة على ذلك بشكل مخيــف. وبــرأس مطروحة إلى الوراء، وبنفس مفزوع، ومذهول تظهر للحظــات قصيرة فى الانبعاث... لا شيء! السكون عميــق. فقــط يثيــر الاضطراب فى هدوء المكان النبض الوئيد والدقيق للساعة التى تلمع فى العمق وبالكاد تبدو واضحة... والكونتيسة عادت لتنام.

فأر خرج من جحره وعبر الصالة برشــاقة وبحيويــة وبشكل مجهد. ومصابيح المرآة سلطت عليه من فوقــه، فبــدت كحدقات وحوش مختبئة فى الأركان المظلمة، وانعكاس ضــوء

القمر نفذ إلى قلب الصالة. والصور الفورية من آلة تـصوير على ألواح معدنية من طراز قديم تقذف عيناها بالـشرر فـوق ترابيزات الكونسول، المستندة إلى جرار ممتلئة بالورود. وعلى فترات متقطعة، كانت تسمع الصوت الطافى الحـزين لـضفدع يرسل نقيقه في الحديقة. إنه منتصف الليل، وضـوء المـصباح يخبو. استيقظت الكونتيسة، ورسمت علامة الصليب.

ومرة أخرى سمعت صرخة... لكنها هذه المـرة شـديدة الوضوح، شديدة التحديد، ولا شك فيهـا. تناولـت عكازهـا، وبحركة استوت على الكنبة وأصغت، قط أسود، رفـع جـسمه بصعوبة على ظهر كرسى، وأخـذ يراقـب المـشهد بعينـين مضيئتين. وشعرت الكونتيسة بالقشعريرة من الخـوف، ولكـى تهرب من وطأة مشاعرها قامت وخرجت من الغرفـة. والقـط الأسود تبعها وهو يموء بشكل مثير للشفقة، ذيله كـان غزيـر الشعر، وظهره كان مقوسًا، وعيناه فوسفوريتان، وكل ما فيـه يوحى بأنه قط مسحور. كان الممر مظلمًا... وخبط العكاز يرن كما لو كان فى صحن كنيسة خاوٍ... وهناك فى النهاية، بـاب موارب يتسلل منه شعاع من الضوء...

والكونتيسة دى ثيلا وصلت وهى ترتجف.

الحجرة كانت خالية، تبدو مهجورة، ومن نافذة مفتوحة بها، والتى تقع على الحديقة، أمكنها أن ترى بشكل إجمالى خيالى مجموعتين من الأشجار تتقاطع جذوعها على صفحة السماء السوداء، الممزقة، ونسمات الليل ترعش الشموع فى الشمعدانات الفضية، والتى تتساقط دموع بكائها بلا عزاء فى الوردات الذهبية، تلك النافذة مفتوحة على الحديقة الغامضة المظلمة التى تملك أن تستحضر شيئًا من المشاعر، وتوعز بها. يبدو أن أحدًا قد هرب منها.

توقفت الكونتيسة وقد شلها الرعب.

فى عمق الحجرة، السرير الخشبى المقدس حيث كان ينام فراى دييجو دى قادش، منقوشة خطوطه الصارمة المتقشفة على طول ستائر من الدمقس القرمزى العتيق الذى يبدو محتفظًا بأثر من آثار الطقوس. أحيانًا لطخة سوداء تجرى فوق الحائط، تأخذها من ظل طائر عملاق: تراها جاثمة على السقف وتتشوه فى الزوايا، وتنجر فوق الأرض وتختبئ تحت الكراسى، وبلا توقع، تقع فريسة لدوار راقص على الحبل، ومرة أخرى تقفز على الحائط، وترمح فوقه مثل عنكبوت...

واعتقدت الكونتيسة أنها تموت.

وفى هذه الساعة، فى وسط هذا السكون، الحفيف الأكثر خفوتًا زاد من أوهامها. قطعة أثاث تطقطق، دودة تأكل فى الخشب، الريح التى تتسرب من خصاص النوافذ، كل شىء امتلك بالنسبة لها نبرات صوت مأساوية أو مرعبة. منحنية فوق عكازها، وكل عضو فى جسمها يرتجف، اقتربت من السرير، أزاحت الستائر، ونظرت... روساريتو كانت هناك لا نفس فيها، متخشبة، بيضاء! دمعتان تبللان خديها.

العينان بهما نظرة شاخصة ومدفونة، عينان ميتتان. ومن صديريتها البيضاء جرى خيط من الدم!... الدبوس الذهبى الذى كان من دقائق قبل الآن يثبت ضفيرة شعر الفتاة الصغيرة، كان بطريقة وحشية مغروسًا فى صدرها، فوق القلب. وشعرها الأشقر منتشر على المخدة، مأساوية، مريم المجدلية...

حلم كوميدى

كهف فى الجبل، فوق مفترق طريقين تمر بينهما الأحصنة، ورجال يمتطون أحصنة، وصلوا أفواجًا، وامرأة عجوز ظهرت فى مدخل الكهف، شكلها برز من الظلمة على خلفية محمرة فى العمق حيث النار المستعرة فى الموقد. هى ساعة حلول الليل، وساعة تتخذ النسور عشها فى أرض الجبل الصخرية. تعود لمهدها بطيران بطىء ويكف معه سماع ضربات الأجنحة.

المرأة العجوز ــ أى مشقة مع انتظارى لكم، يا أولادى! فمنذ الليلة الماضية وأنا أشعل النار الكافية لتستطيعوا أن تتدفأوا. هل وصلتم منهكين؟

والمرأة العجوز دخلت الكهف، والرجال ترجلوا من فوق الأحصنة، بسحناتهم العابسة، وحدقاتهم تلمع فى بياض عيونهم بشراسة غريبة. واحد منهم بقى مع الأحصنة لحراستها، والآخرون، وخرج كل منهم على كتفه، فقد دخلوا إلى الكهف وجلسوا حول النار يصطلون بها. كانوا اثنى عشر لصًا وزعيمهم الكابتن.

المرأة العجوز ــ هل كان الحظ حليفكم يا أولادى؟

الكابتن ــ سترين الآن يا أمى سيلبيا! هيا يا شباب جمِّعوا الغنائم لكى يمكننا تقسيمها إلى أنصبة.

المرأة العجوز ــ لن تساوى الغنائم أبدًا طول غيابكم.

الكابتن ــ لم نطلب أقل مما نحصل عليه فى كل مرة يا أمى سيلبيا.

والأم سيلبيا فرشت فرشة من القماش الجوخ حول الموقد، وعيونهم أخذت تراقب بلؤم كيف أن أيدى هؤلاء الاثنى عشر رجلاً اختفت فى عمق الأخراج وتخرج الحلى الذهبية المتشابكة، التى تومض فى ضوء ألسنة اللهب المرتعشة.

المرأة العجوز ــ أبدًا لم أر من قبل أحجارًا كريمة بمثل هذه الوفرة!

الكابتن ــ ألم يبق شىء فى خرجك يا فيرّاجوت؟

فيرّاجوت ــ لا شىء يا كابتن.

الكابتن ــ وفى الأخراج التى لديك يا جالاءور؟

جالاءور ــ لا شىء!...

الكابتن ــ حسنًا... ليكن معلومًا لكم يا أولادى، أن كل من يخدعنى ستكون حياته هى الثمن الذى سيدفعه. ائتِ بالنور هنا، يا أمى سيلبيا.

والأم سيلبيا أنزلت القنديل. وطلب الكابتن أخراجه التى تركها عند دخوله فوق مقعد لتكون موجودة قبالة النار. واللصوص اقتربوا. وفوق هذه المجموعة من الرءوس العابسة الفضولية ينعكس اللهب الدامى للنيران المشتعلة لجلب الدفء. وأخرج الكابتن من الأخراجِ منديلاً موشى بالذهب، وعندما بسطه أمكن رؤيته وقد استخدم ككفن ليد مبتورة. يد لامرأة بأصابع ممتلئة بالخواتم، يد فى بياض زهرة.

المرأة العجوز ــ يا لها من خواتم! كل واحد يقدر بثروة. لا يوجد لا أغلى ولا أجمل، عليكم أن تعلموا ذلك يا أولاد...

الكابتن ــ جميلة أيضًا اليد، ولا بد أن تكون صاحبتها أكثر جمالاً!

المرأة العجوز ــ ألم ترها؟

الكابتن ــ لا... اليد ظهرت خارجة من بين قضبان السور، وبترتها بأن ضربتها ضربة لفت حولها من سيفى المحدب. كانت قضبان السور مختفية خلف أشجار الياسمين، وبدون لمعان الخواتم كانت اليد تبدو زهرة أخرى. أوقفت ركض حصانى، ودون أن أوقفه جعلتها تسقط بين الزهور، مضرجة بالدم، ولم أكد أجد وقتًا لالتقاطها والهرب بها... آى، لو أمكننى أن أتخيل جمالاً مثل هذا!

ولبث الكابتن غارقًا فى التفكير: سحابة من الحزن كست وجهه، وفى العينين السوداوين الضيقتين اللتين تتأملان النـار، ارتعشت خوفًا من اللون الذهبى للَّهب ومن الأحلام. وواحد من اللصوص وصل إلى اليد التى كانت مستلقية فوق فرشة القماش، والمنديل الموشى بالذهب، وحاول خلع الخواتم منها، والتى بدت ترصع الأصابع المتيبسة. رفع الكابتن رأسه وصـعقه بنظـرة رهيبة:

الكابتن ــ دع ما ليس باستطاعتك أن تلمسه يا ابن الكلبة. دع هذه اليد التى فى ساعة نحس قطعها سيفى المحدب. هكـذا كانت عيناى عمياوين عندما نظرت إليها. مسكينة أيتهـا اليـد البيضاء التى فجأة أخذت تذبل مثل الزهور! أهب كل كنـوزى من أجل أن أعيدها سليمة للذراع الذى قطعتها منه!...

المرأة العجوز ــ ولعلك تجد كنزًا أكبر!

الكابتن ــ ومن أجل أن أرى الوجه لتلك المـرأة أهـب حياتى يا أم سيلبيا، إنكِ خبيرة فى علم قراءة الكـف ومعرفـة أسراره، قولى لى من هى.

تنهد الكابتن واللصوص ظلوا ساكنين فـى ذهـول ممـا يرونه، كما لو أن دمعتين تنحدران على الخدين المتوحـشتين. وأخذت الأم سيلبيا بين يديها اللتين لساحرة، هذه اليد البيـضاء،

وبلا جهد، خلعت منها الخواتم، ثم فركت راحة اليد المتيبسة كى تنظفها من الدم وتستطيع أن تقرأ خطوطها. واللصوص هـدأوا وانتبهوا.

المرأة العجوز ـ منذ مولدها، وهذه اليد عثـرت علـى حظها فى الحياة مقدمًا، بنزع أوراق زهرة، ورقة ورقة وإلقائها للريح، إنها الزهرة التى قالوا عنها زهرة السعد. إنها يـد فتـاة عذراء مسحورة، وإنها عندما ينام القزم الذى هو سجانها تطـل خارج قضبان السور وتنادى على العابرين.

الكابتن ـ بأى رقة خفية مازالت تنادينى!...

المرأة العجوز ـ أعين البشر لا تستطيع أن تراها حتـى لو نظرت لها عيناك، لأن قدرة القزم توهم الـبعض بـأن مـا يرونها حمامة بيضاء، وتوهم الآخرين بأنها زهرة بين أزهـار السور المكسو بالزهور.

الكابتن ـ ولماذا رأتها عيناى بدون ذلك التوهم؟

المرأة العجوز ـ لأنها وضعت الخواتم فـى أصـابعها بكثرة حتى لا تتوهم أنها حمامة ولا زهرة. وقطعتها أنت، ولو أنك لم تفعل ذلك بسيفك المحدب الذى دار حولها، كنت ستكون عريسًا للعذراء المسحورة، التى هى بنت ملك.

صمت الكابتن وهو يفكر. والأم سيلبيا، فى ضوء القنديل، عدَّت، وقدرت ثمن الخـواتم. أمـا فيرَّاجـوت، وجـالاعور، وفييرابراس واللصوص الآخرين فشرعوا فى تقسيم الغنائم.

فيرَّاجوت ـ هات هذه الخواتم هنا، يا أمى سيلبيا.

جالاعور ـ دعها حتى تراها.

فييرابراس ـ خبطة حلوة خبطها الكابتن!

أرجيلاو ـ ألا تكون هذه الخواتم عملاً من أعمال السحر، والتى يمكن أن تختفى؟

سليمان ـ لو أن هذا يخيفك، أنا أشترى منك ما سيقع من نصيبك.

بارباروخا ـ أنا أشتريه منك. يمكنك أن تغيره أو تلعـب به.

المرأة العجوز ـ إنها تبرق بنور وهاج، حتى إن يـدى المجعدتين تبدوان جميلتين بهم.

بعد هذه الكلمات، ساد صمت، وقد سمع صوت إلهامـه، فانتبهوا كلهم، ومازال الصمت مخيمًا عندما ظهر فـى مـدخل الكهف شبح، برداء صوفى خشن، هـو رداء التوبـة، ولحيـة طويلة، دخل متنكرًا ومنحنيًا فوق عكاز طويـل، وفـى وسـط

الكهف اعتدل وأنزل اللحية الوقورة، التى ألقى بها فى الموقد حيث ارتفع لسان من اللهب قصير وطارت فى الهواء. واللصوص ضحكوا وتصايحوا بصيحة المسلمين فى حروبهم بجسارة، أما الكابتن فدار عليهم بنظرة من عينيه.

الأرميتانيو ـ خبر أحمله لكم حتى لا تقطب الجبين يا كابتن.

الكابتن ـ قل ما هو بسرعة، وانصرف.

الأرميتانيو ـ قبل الفجر ستمر عن طريق الجبل قافلة من التجار الأغنياء.

ابتهج اللصوص وعلى وجوههم ابتسامة الذئب التى تظهر فيها الأسنان. فيرّاجوت سن خنجره على حجر الموقد، والمرأة العجوز ألقت بحزمة حطب أخرى فى النار.

الكابتن ـ هل هم كثيرون هؤلاء التجار؟

الأرميتانيو ـ إنهم أبناء وأحفاد البيان الأحمر.

الكابتن ـ ومن أين سيمرون؟

الأرميتانيو ـ فى أراضٍ بعيدة، ببضائع من الحرير والديباج.

سكت الكابتن وظل يتأمل النار، ثم عاد غاطسًا فى ضباب حلمه. وفى الكهف دخل كلب بحذر، واحد من تلك الكلاب التى تتجول بالليل فى ضوء القمر، تجرى فى الطرق المنعزلة. اقترب من الحائط وبأذنيه المطأطئة اقتفى الأثر فى الظلام. ومرة واحدة رفع رأسه وتشمم الهواء، ثم لمعت عيناه. إنه كلب أبيض وشبحى. سمع صرخة. هرب الكلب حاملاً بين أسنانه اليد المبتورة، زهرة من بياض ناصع وغامض، التى كانت مستلقية فوق بقجة الذهب. خرج اللصوص زمرة واحدة إلى مدخل الكهف. والكلب كان قد اختفى فى الليل.

الكابتن ــ اتبعوه!

فيرّاجوت ــ يبدو أن الظلمة قد ابتلعته.

سليمان ــ لقد دخل إلى الكهف دون أن يراه أحد.

جالاءور ــ إنه كلب مسحور.

بارباروخا ــ من حسن الحظ أنه أخذ اليد فقط، لأن الخواتم مازالت مصونة إذ خلعتها الأم سيلبيا.

الكابتن ــ اتبعوه! نصف كنوزى سأعطيها لمن يعيد لى هذه اليد. اتبعوه! فيرّاجوت، جالاءور، سليمان اعملوا مسحًا للجبل دون أن تتركوا عشبة، بارباروخا، جايفيروس، سيفير، أنتم عليكم أن تنتشروا فى كل الطرق. بسرعة بالأحصنة! نصف

كنوزى ملك لمن سيعيد لى هذه اليد. نصف كنوزى، وكل الخواتم التى رأيتموها تبرق فى أصابعها المتيبسة. بسرعة، بسرعة على الأحصنة! ألا تسمعون؟ من يعصى أوامرى؟ اضربوا فى شعاب الجبل واقطعوا الطرق جريًا، أو ستتدحرج رءوسكم.

جماعة اللصوص بدت وهى لا تتحرك فى مفترق الطرق، وفى العمق أكثر، بدت الأحصنة وعليها السروج وهى تقضم وتلوك أعشاب الجبل الجافة، والقمر يضىء والمكان الصخرى، الذى تضربه الرياح كلها. وسمع أن قافلة تعبر عن بعد ببطء، ونعسانة، الأم سيلبيا من مدخل الكهف قالت تسمعهم صوتها:

المرأة العجوز ــ يا أولادى، لا تغامروا فى الدنيا بلا فائدة، لأنكم ستموتون وأنتم شيوخ على طول الطريق دون العثور على يد الأميرة... القافلة مرت، والأحسن من يستفيد بما ناله من حظ.

الكابتن ــ اسكتى، أيتها العجوز الشريرة، وإذا لم تريدى أن تسكتى، فسأمسمر لسانك بخنجرى.

فيرّاجوت ــ أنا لن أسمح لك بذلك.

سليمان ــ ولا أنا.

بارباروخا ــ الأم سيلبيا تكلمت بالحق.

جالاعور ــ الكابتن صار مسحورًا بهذه اليد التى قطعها.

سيفير ــ عن نفسى فلا شىء فى العالم يجعلنى أضع واحدًا من تلك الخواتم.

جايفيروس ــ أنا، لو أن أحدًا جار على نصيبى عند تقسيم الغنائم، فمن هذه الساعة أتنازل عنه.

الكابتن ــ اخرسوا يا أولاد الكلبة. أنا سأذهب وحدى، لأننى لست فى حاجة لأحد منكم وعليكم أن تبقوا هنا فى انتظار حبل المشنقة.

وتقدم خطوة نحو الجماعة من أهله، وظل ينظر إليهم من علٍ بنظرة احتقار.

وانتظر اللصوص مخيفين خائفين وحانقين حريصين على أن تظل أيديهم فوق خناجرهم، وسمع أكثر جلبة اقتراب القافلة التى تعبر الجبل. والكابتن، بصوت هائل نادى على حصانه، وركبه وابتعد به.

المرأة العجوز ــ انتظر إلى أن تسمع النصيحة!

جايفيروس ــ لا تنادى عليه، لأنه لن يستمع إليكِ.

أرجيلاو ــ لن يعود مطلقًا.

فيرّاجوت ــ من هذه الساعة سأكون أنا الكابتن.

بارباروخا ــ أنا من سيكونه.

سليمان ــ انظر. إن كل واحد سيقول ذلك عن نفسه.

جالاءور ــ نعملها بالاقتراع.

سيفير ــ وما تظهره يقررونه.

فرشت الأم سيلبيا فوق الأرض بقجة الذهب التى كانت كفنًا لليد البيضاء، سجلوا نصيبه بلعبة النرد، بينما، وخلال الطريق الذى أناره القمر، كان فارس يجرى فى البحث عن اليد التى للأميرة كيميرا.

ميلون دى لا أرنويا

ذات ليلة، فى موسم قطاف العنب، جاءت بالقرب من بيتنا، شابة طويلة، ضامرة، داكنة السمرة، بشعر قاتم، وعينين محمرَّتين بشدة، غائرتين فى استدارتى هالتى العينين، جاءت باكية وهى تتلهف:

ــ احمونى من ملك المسلمين الذى أخذنى غنيمة! إننى أسيرة لأسقريوطى!

وجلست فى ظل عربة تحللت من نيرها وبدأت تتخلص من كل ما كان متعلقًا بها. بعد أن وصلت إلى الحوض حيث تشرب الماشية والأغنام، وغسلت جرحًا فى خدها. سيرينين دى بريتال، رجل عجوز يضرب بقدميه فى حوض عصر العنب، توقف ليزيل العرق بيده الحمراء من عصير العنب.

ــ ستكونين من أسرانا لو عملت فى خدمتنا، ارفعى دعوى فى المحكمة. ما الذى يمكننا أن نقدمه لكِ هنا. ستكونين من أسرانا.

شرحت له المرأة:

ـ امنع عنى النار حتى لا تطالنى! ألا يوجد فم مسيحى يساعدنى بكلمات طيبة تحررنى من العدو.

وسألت امرأة عجوز:

ـ أنتِ لستِ من هذه البلدة؟

قالت المرأة الداكنة السمرة وهى تنتحب:

ـ أنا من علي بعد أربعة أميال فى صعيد سانتياجو. جئت هذه البلدة لأجد عملاً بها، وبينما كنت أبحث عن سيد، وقعت من صميم قلبى فى أسر الشيطان. كان أحد السحرة الذين عملوا لى عملاً من أعمال السحر فى تفاحة من تفاح رينيتا. عشت فى الخطيئة مع شاب كان يشدنى من ضفائرى. احتفظ بى أسيرة، لدرجة أننى لم أعد أطيقه أبدًا، والشىء الوحيد الذى أتمناه أن أراه ميتًا. احتفظ بى أسيرة بعمل الشياطين.

النسوة والرجال العجائز رسموا علامة الصليب وهم يتمتمون بإشفاق عليها، لكن الشباب كانوا يصهلون مثل تيوس كثة اللحى، يتقافزون فى الأحواض، وفوق العربات المحملة بالعنب، حمرٌ، عراة، وأقوياء. صاح بيدرو الأرنيلو، من ناحية كرنديس:

ـ ها ها يا للعجب! لا تجعليه يلمسكِ ويدغدغكِ وسترين كيف ستطيرين العدو!

رنَّت أصوات الضحكات الفرحة البدائية... الشابات ازدادت حرارتهن قليلاً، خفضن جباههن وبأسنانهن فككن عقدة مناديلهن. أما الشباب فمن فوق العربات استعادوا القفزات والاستمرار فى صبر، فى دوس العنب بأقدامهم. لكن فجأة توقف الاحتفال. جدتى أنهته بأن أطلت على الفناء، تجرُّ رجلها المصابة بالنقرس مستندة إلى ذراع ميكائيلا لاجالانا. إنها دونيا دولوريس ساكو، جدتى لأمى، سيدة خيرة معتزة بنفسها، طويلة، جافة، تنتمى لزمن قديم. الشابة داكنة السمرة عادت إلى الفناء بذراعين مرفوعين عاليًا:

ـــ احمنى يا سيدتى النبيلة!

وجدتى ارتجفت ذقنها بكلام سيادة مطلقة وهى تتساءل:

ـــ أى حماية تطلبينها أيتها الشابة؟

ـــ من ملك المسلمين! لقد جئت هاربة من كهف الجبل حيث أخذنى غنيمة.

وميكائيلا لاجالانا همست فى أذن جدتى:

ـــ يبدو أنها محظية يا ميسيا دولوريس!

وجدتى رفعت نظارتها الصدفية وعادت للسؤال وهى تنظر إلى الشابة:

ـــ وما اسم ملك المسلمين الذى تعنينه؟

ـــ ملك المسلمين هكذا، يا سيدتى!

ـــ تكلمى بصوت لا يسمع.

تأوهت الشابة داكنة السمرة:

ـــ لقد احتفظ بى أسيرة بعمل من أعمال الشياطين.

وتدخَّل العجوز سيرينين دى بريتال معترضًا:

ـــ السيدة تريد أن تعرف ما هو اسم الشاب الذى يحتفظ بكِ تحت سيطرته وأين موطنه.

الشابة الداكنة السمرة رفعت ذراعيها وهى ترتجف بصوت أشبه بالخوار:

ـــ ميلون دى لا أرنويا، إنه مارد، ومطارد من العدالة، ويعيش من طلاسة الحيطان بالجبل، ويسرق المزروعات، والماشية والأغنام.

فى بيت جدتى، عندما يتجمع الخدم عند حلول المساء، لتفريط كيزان الذرة وفصل الحب عن القوالح، دائمًا تأتى سيرة ميلون دى أرنويا، بعض المرات رآه الناس فى سوق ما، ومرات أخرى رأوه فى الطريق، وأخرى مثل الثعلب يدور حول القرية. وسيرينين دى بريتال، الذى عنده قطيع من الغنم، اعتاد

أن يحكى كيف سرق الحملان فى أدغال باربانتا. اسم هذا الصعلوك المطارد من العدالة، ألقى بظله على ملامح الجميع. وجدتي فقط هى التى ظلت محتفظة بابتسامتها المتعالية:

ـ إنه ظالم، إذا جاء إليكِ لن أعترض عليكِ. ابقى لتستقبليه فى بيتى، أيتها الشابة!

تعالى الهمس بامتداح جدتى. أما الشابة الداكنة السمرة فقدمت لها الشكر وهى تشعر بالخزى، ومضت لتجلس فى مكان قريب بالفناء ورأسها مغطاة. وعلى البعد ترن أصوات قطف العنب. صف طويل من العربات يأتى من الطريق العمومى. شابات حافيات وهائجات تتقدمن، ويبعث فيهن المرح والحيوية فدان الزرع بثيرانه الذهبية، وأخريات تأتين على الأحواض وأفواههن ممتلئة بالأغنيات والضحكات، وقد صبغتها رغوة العنب. والعربات تدخل ببطء، فى الحوش، وخلف العربة الأخيرة يظهر شحاذ كل ما يرتديه خرق بالية، أشعر وقوى. الشابة الداكنة السمرة، التى كانت رأسها مغطاة، نهضت كما لو أنها عرافة وقد ارتعدت وتحول وجهها إلى الزرقة المائلة للسواد وغشيته الكآبة:

ـ فابد، بعمل السحرة تأتى إلى هذا الباب! لا تضحك، فم الشياطين!

لم يتحرك الرجل من على عتبة الباب، واسترق النظـر فيما حوله وعاد بنظره إلى الأرض وتنهد:

ــ عطش، يطلب الماء من أجل رجل فقير، ثم يمضى فى سبيله.

والشابة الداكنة السمرة صرخت:

ــ هذا الذى يتكلم إليكم هو ميلون دى لا أرنويا ساقه إلى هنا عطشه. كسول مثل كلب مسعور، ميلون دى لا أرنويا!

وقد سكتت الأصوات كلها. النسوة تطلعن إلـى الـشحاذ ممتلئات بحب استطلاع مرعب والرجال بارتياب. البعض أمسك بالمناخس التى تحث الثيران. وفى أعلى الفناء، جدتى، تركـت الذراع التى كانت تستند إليها. صارت منتصبة القامة، صـلبة، قوية بذقنها التى ترتعش دائمًا، أسمعتهم صوتها الـذى سـيطر بشكل مطلق على الجميع:

ــ أسعفوا هذا الرجل، وعليه أن ينصرف.

ميلون دى أرنويا، بالكاد رفع جبهته العنيدة:

ــ ميسيا دولوريس، هذه المرأة هى من أهيم بها. لا شىء سيئ يمكن أن يحكى عنى. تكلمى بالحقيقة عن كل شىء، أيتها الغجرية.

الشابة الداكنة السمرة لوت ذراعيها:

ـــ سرعان ما ستتكر! فاتن! سرعان ما ستتكر!

العينان الغائرتان والمطفأتان لجدتى استعادتا الحيوية بشعاع من الحمى:

ـــ أيها الشبان، ارموا هذا الظالم من بابى.

ـــ يميجيو دى بيالو وبيدرو الأرنيلتو اتجهوا إلى سياج القضبان الحديدية للحوش، لكن الآخر واصل كلامه المخيف والمبكى:

ـــ اطمئنوا لأننى سأنصرف بالفعل! أخوة أكثر أراها بين الذئاب من التى أراها بين البشر.

وابتعد، والمرأة الداكنة السمرة انهارت ساقطة على الأرض، واعوج فمها وتساقطت منه رغوة، والذين يعملون فى موسم قطف العنب أحاطوا بها، وأحاطوا بها حتى لا تنزع عنها ثيابها. وسيرينين دى بريتال حمل ماءً من البئر. وميكائيلا لاجالانا نزلت بمسبحة، وفى هذه اللحظة سمعوا أصواتًا هائلة تأتى من الطريق العمومى. ميلون دى لا أرنويا. كانت أصواتًا مثل صرخات أحد وحوش الجبال الضارية، والشابة الداكنة السمرة أول ما سمعته قامت من وسط حلقة النسوة قبل أن يمسوها بالمسبحة المباركة، ترغى وتزبد، مولولة، عارضة من

بين خرق الجلباب اللحم المتشنج، وهى ترتطم بـين عربـات قطف العنب واختفت. تقاطروا كلهم إلى السياج ورأوها وهـى تمضى إلى جانب ميلون دى لا أرنويا. بعد ذلك حكوا أن اللص قاطع الطريق، كان يمسكها من ضفائر شعرها ويحملهـا وهـو يجرها إلى كهفه بالجب. وبعضهم قالوا إنهم أحسوا فى الهـواء بأجنحة الشياطين. أنا فقط، رأيت، عندما يحل الليـل ويظهـر القمر، بومة فوق شجرة سرو.

مِثَال

كان أمارو راهبًا صالحًا، وكان فى ذلك الزمن يعيش فى الجبل حياة التائبين، الذين يرتدون ثوب التوبة فـى المواكـب الدينية، وعصر ذات يوم، وقعت عيناه وهو يصلى على عـابر من بعيد فى الطريق الرئيسى، وكان رجلاً يغطى التراب كيانه كله. والراهب الصالح، وبما أنه كان عجوزًا، كان نظره ضعيفًا ولم يستطع أن يتعرف عليه، لكن قلبه أرشده إلى من يكون هذا العابر الذى يخرج للعالم ملتفًا بهالات ذهبية من الشمس الغاربة. فنهض من الأرض جاريًا نحوه متوسلاً إليه:

ـــ يا سيدى، دعه يلحق بك، خاطئ حزين!

والعابر، الذى صار الآن بعيدًا، سمع هذه النداءات وتوقف منتظرًا. وصل أمارو متقطع الأنفاس، وعندما وصل، جثا على ركبتيه وقبَّل طرف ردائه، لأن قلبه كان قد قال له إن هذا العابر هو سيدنا عيسى المسيح.

ـــ يا سيد، دعنى أمضِ فى صحبتك!

والسيد عيسى المسيح ابتسم:

ـــ يا أمارو، مرة واحدة أتيت إلىَّ وتخليت عنى.

الراهب الصالح أحس بتأنيب الضمير، أحنى جبهته:

ـــ يا سيد، اغفر لى!

السيد عيسى المسيح رفع يده اليمنى المثقوبة بكبش قرنفل ورسم عليه علامة الصليب:

ـــ مغفورة لك خطاياك. اتبعنى.

وواصل سيره فى الطريق الذى بدا يطول حتى المكان الذى تغرب فيه الشمس، وفى اللحظة نفسها شعر بأن قواه قد خارت، هذا الراهب الصالح:

ـــ هل هو طريق طويل جدًا هذا الذى تسير فيه يا سيد؟

ـــ الطريق الذى فيه تسير، هو شديد القرب، شديد البعد...

ـــ لا أفهم، يا سيد!

ـــ أوَلَمْ أقل لك إن الغايات كلها، إما أنها بعيدة هناك حيث لن تبلغها أبدًا وإما أنها فى القلب؟

أطلق أمارو تنهيدة طويلة. كان قد قضى الليلة فى الصلاة، وخاف من أن تخونه قواه خلال الرحلة، التى بدأ قلبه يشعر بما سيحدث من أنها طويلة وشاقة. والطريق فى كل لحظة يضيق أكثر فأكثر، ولا يستطيعان أن يمضيا فيه متجاورين،

الراهب الصالح مضى فى إثر السيد. كان الوقت صيفًا، والطيور عادت إلى أعشاشها، تغرد بين الأغصان، والرعاة نزلوا من الجبل يسوقون أمامهم قطيع الأغنام.

أمارو، مثلما كان عجوزًا وقليل الصبر لم يتوانَ عن التألم من التراب، ومن التعب، ومن العطش... والسيد عيسى المسيح سمعه بهذه الابتسامة التى تظهر أن السماء واربت أبوابها للخطاة:

ـــ أمارو، من يأتِ معى عليه أن يتحمل ثقل صليبى.

والراهب الصالح اعتذر وهو يشكو:

ـــ يا سيد، أنت ترانى عجوزًا جدًا، ومنهمكًا مثلما أنا، وعلىَّ أن أشكو لك هكذا.

السيد عيسى المسيح أراه قدميه الربانيتين، اللتين شققتهما أشواك الطريق وجعلتهما تنزفان دمًا فى صندلهما، ويواصل سيره إلى الأمام، أطلق أمارو تنهيدة من التعب:

ـــ يا سيد، أنا لن أستطيع السير أكثر من ذلك.

وناظرًا إلى فتى قادم من وسط دغل حيث تنمو أشجار الرَّتَم. جلس وانتظره. السيد عيسى المسيح توقف أيضًا:

ـــ يا أمارو، قليلاً من العزم وسنصل إلى القرية.

ـ يا سيد، دعنى هنا! انظر إلى أننى أتممت مائة عام وأننى لا أستطيع السير.

وهذا الفتى الذى أتى من هناك لا بد قريب من الحظيرة، وسألتمس منه أن يتركنى أقضى الليلة فيها. أنا ليس لى ما أفعله فى القرية.

السيد عيسى المسيح نظر إليه بصرامة بالغة:

ـ يا أمارو، فى القرية امرأة مسها الشيطان تنتظر الشفاء منه منذ سنوات.

صمت. وفى سكون الليل الذى حل، سمعا عدة صرخات تثير الفزع. وأمارو، مأخوذًا، نهض من فوق الحجر حيث كان يستريح فوقه، مواصلاً سيره خلف السيد عيسى المسيح. وقبل الوصول إلى القرية برز القمر غامرًا باللون الفضى قمم بعض أشجار السرو حيث يغرد مختفيًا ذلك البلبل السماوى حتى يسمع راهب صالح آخر مفتونًا لثلاثمائة سنة. وعلى البعد ترتعش بالكاد المياه الشفافة لأحد الأنهار، والتى تبدو وهى تحمل فى عمقها النجوم السماوية النائمة. وتنهد أمارو:

ـ يا سيد، أعطنى الإذن بأن أستريح هنا فى هذا البراح.

ومرة أخرى رد عليه بصرامة السيد عيسى المسيح:

ـ احسب عدد الأيام التى تحملها المرأة التى تصرخ فى القرية.

بهذه الكلمات توقف البلبل، عن التغريد، وفى عصفة هواء ارتفع فيها فجأة، وعبر، صوت صرخات المرأة التى مسها الشيطان، ونباح الكلاب الساحرة فى الأجران.

كان الليل قد أطبق عليهما والخفافيش طارت فوق الطريق، أحياناً فى ضوء القمر، وأحياناً أخرى فى الظلام بين فروع الأشجار. ومر وقت سارا فيه وهما صامتان. ويصلان إلى القرية فى الوقت الذى بدأت فيه الأجراس تدق من نفسها. وكان هذا هو الإعلان عن وصول السيد عيسى المسيح، الغيوم التى غطت القمر تلاشت، والأشعة الفضية تخترق من خلال فروق الأشجار، مضيئة الطريق، والطيور التى كانت نائمة فى الأعشاش صحت وهى تغرد، وفى التراب، تحت الصندل السماوى، تتفتح الورود والزنابق، والهواء كله معبأ بشذاها. سارا خطوات قليلة جدًا وعلى جانب من الطريق عثرا على المرأة التى مسها الشيطان مرتمية على الأرض. السيد عيسى المسيح توقف والنور من عينيه سقط عليها كرحمة من معجزة فوق هذه التى تمرغت فى التراب وبصقت على أرض الطريق، مد لها يديه المثقوبتين، وقال لها:

ـــ انهضى، يا امرأة، وعودى إلى بيتك.

نهضت المرأة وهى تولول، وبأصابعها تعبث فى شعرها، وجرت إلى القرية. وهما ينظران إليهـــا تختفـــى علـــى طـــول الطريق، انخرط فى البكاء الراهب الصالح:

ـــ يا سيد، لماذا لم تردَّ لها هنا، فى هذا المكـــان نفـــسه، صحتها؟ ولماذا تذهب بعيدًا أكثر؟

ـــ يا أمارو، إن المعجزة تتم أيضًا بين النـــاس الـــذين لا يؤمنون والذين فى هذا المتسع تركوها وتخلوا عنها. اتبعنى.

ـــ يا سيد، أنا أتعبك معى! لماذا لا تعمل مع آخر معجزة أن تجعل ساقى الهرمين يتركهما الإحساس بالتعب؟

للحظة ظل السيد حزينًا وهو مستغرق فى التفكير، بعـــد ذلك غمغم:

ـــ ليكن!... فلتشف، ولتستعد قواك.

والراهب الصالح، الذى كان يمشى محنيًـــا منـــذ ســـنين طويلة، اعتدل قوامه وابتهج، وتخلص من كل تعب:

ـــ شكرًا يا سيد!

وتناول طرف الرداء وقبله، وإذ إنه عند انحنائه رأى القدمين الإلهيتين، ينزفان دمًا على التراب الذى تدوسان عليه، همس فى خجل وبحنان:

ـ يا سيد، دع جراحك تتوقف عن النزف!

والسيد عيسى المسيح ابتسم له:

ـ لا أستطيع ذلك، يا أمارو، لا بد أن ألقن الناس أن الألم هو شريعتى.

بعد هذه الكلمات، ركع فى جانب من الطريق وبقى يصلى بينما ابتعد الراهب الصالح.

أما المرأة التى مسها الشيطان، والمشتبكة أصابعها فى شعرها، فقد جرت نحوه. إنها امرأة ترتدى أسمالاً بالية، بنهدين مخمليين ومتدليين. وعلى ضفة النهر، الذى بدا من الفضة تحت ضوء القمر، توقفت تنهج مبهورة الأنفاس، تركت نفسها لتقع فوق العشب وتبدأ فى التمرغ والبكاء. والراهب الصالح لم يتأخر فى أن يراها من ناحيته، وكما لو أنه أحس بالحيوية والكرم لشاب حاول أن يمسك بها لكن ما كادت يداه تلمسان هذا الجسد من خاطئ لخاطئة حتى أحس باضطراب هائل. نظر إلى المرأة التى مسها الشيطان، ورآها تحت ضوء القمر، جميلة كأميرة، وترتدى ثيابًا حريرية شرقية، والأيدى الفاسقة التى

مزقتها لتعثر على الزهرتين البيضاوين لنهديها. انتاب أمـــارو الخوف، عاد ليحس بنيران الشباب فى دمه مسات من الجنـــون. وبكى متذكرًا سلام الطريق القويم، تعب الصالحين مــن الـــذين يمشون فى العالم مع السيد المسيح، الروح عندئذٍ تبكى حزينـــة، تحس بأن الجسد يحترق/ مشتعل. المرأة صارت ممزقة الغلالة بالكامل وظهرت عارية. وأمارو اقترب خـــائر القـــوى، نظـــر بضيق فيما حوله، ورأى فقط فى بـــراح الـــسهل الـــصحراوى جمرات موقدة متروكة من الرعاة، عندئذٍ تذكر كلمات الـــسيد: الألم هو شريعتى!

وانتزع نفسه متجهًا للموقد، وقوى نفسه ودس يـــده فـــى الجمرات، بينما باليد الأخرى رسم علامة الصليب، المرأة التى مسها الشيطان اختفت. شقشق نور فجر اليوم، والراهب الصالح رفع اليد من الجمرات، وفى راحة يده رأى وردة وهى تتفـــتح، وإلى جانبه السيد المسيح.

ليلة عيد الميلاد

كان ذلك فى جبل جليقية. كنت أدرس فى ذلك الحين قواعد اللغة اللاتينية مع السيد أرثيبريستى دى سينجوس، وكنت أمارس حياة إماتة الجسد، وهى لإماتة الشهوات فى بيت رئيس الكنيسة. وحتى الآن مازلت أرى نفسى فى فتحة نافذة، أنتحب وأتنهد. نزلت دموعى فى صمت فوق كتاب القواعد لنبريخا، فتحت الجزء العلوى من النافذة. كان يوم ليلة عيد الميلاد، والسيد أرثيبريستى كان قد عاقبنى بألاَّ أتناول العشاء حتى أعرف كيف أنجح فى تصريف ذلك الفعل الفظيع:

ـ "Fero, Fers, Ferre, Tule, LaTum".

وأنا، كنت قد فقدت الأمل تمامًا فى أن أنجح فى تصريفه، وكنت قد جهزت نفسى للصيام مثل ناسك صالح. انقطع تطلعى إلى البستان، حيث غرد طائر شحرور، والذى كان يجتاز بقفزاته مسافات بين فروع شجرة جوز تجاوز عمرها مائة سنة. والغيوم، ثقيلة ورصاصية، راحت تتجمع فوق سييرّادى سلتيجوس فى أفق فى الماء، والرعاة، أطلقوا صيحاتهم لقطعانهم، متعجلين النزول على الطرق ملتفين بأغطيتهم من التيل. وقوس قزح غطى البستان، وأشجار الجوز القاتمة وأعواد

الريحان الخضراء المبتلة بدت ترتعش تحت شعاع من نور برتقالى. وعند حلول الليل، اجتاز السيد أرثيبريستى البستان: يسير محنيًا تحت شمسية زرقاء واسعة، انعطف عند السياج وجاء إلىَّ فى النافذة ونادى علىَّ بإشارة من يده. نزلت وأنا أرتجف قال لى:

ـ هل تعلمت ذلك؟

ـ لا، يا سيدى.

ـ لماذا؟

ـ لأنه بالغ الصعوبة.

ابتسم السيد أرثيبريستى بقلبه الطيب:

ـ حسنًا: غدًا ستتعلمه، والآن تعال معى إلى الكنيسة.

وأخذنى معه ممسكًا بيدى حتى يحمينى بالمظلة، إذ إنها بدأت تمطر مطرًا خفيفًا، وأخذنا نتقدم فى طريقنا. كانت الكنيسة قريبة، ولها باب مسطح على الطراز الرومانى، وكما قال السيد أرثيبريستى إن التى أسستها هى الملكة دونيا أورَّاكا. دخلنا، وأنا بقيت وحيدًا فى مقصورة الكهنة، والسيد أرثيبريستى مضى إلى غرفة المقدسات بملابس الكهنة وهو يتكلم مع خادم القداس من الفتيان يوصيه بأن يجهز كل شىء من أجل قداس ليلة عيد

لميلاد. بعد ذلك بقليل رجعنا وخرجنا. كان المطر قد توقف بالفعل، والبزوغ الشاحب للقمر بدأ ينير السماء الشاتية الحزينة. كان الطريق مظلمًا، كان طريقًا للأحصنة والبغال والحمير، طريقًا حجريًا، وبه برك كبيرة على طول الطريق، وقابلنا شابًا قرويًا توقف ليشرب بهدوء فى الحقل متعبًا من ثيرانه. والرعاة العائدون من الجبل يسوقون القطعان أمامهم، ويوقفونها فى المنعطفات، ويحثونها على أن تقف على جانب من الطريق حتى يتيحوا لنا أن نمرَّ وكلهم حيونا كمسيحيين:

ــ حياكم الله.

ــ حياكم الله.

ــ امض فى سعادة يا سيد أرثيبريستى أنت وصاحبك.

ــ آمين!

وعندما وصلنا إلى بيت رئيس الكنيسة، كان الليل قد أطبق علينا. ميكائيلا بنت أخت السيد أرثيبريستى، نشطت لتجهز العشاء، ونحن جلسنا فى المطبخ لنصطلى بالنار. ونظرت لى ميكائيلا وهى تبتسم:

ــ اليوم ليس فيه مذاكرة، حقيقى؟

ــ اليوم، لا.

ـــ أنت لا تحب اللاتينى، أتنكر ذلك؟

ـــ هذا حقيقى.

وقاطعنا السيد أرثيبريستى وبشكل صارم:

ـــ ألا تعرفان أن اللاتينية هى لغة الكنيسة...؟

وعندما بلع ريقه السيد أرثيبريستى ليؤسس بحديث طويل مزدحم بالمعرفة الدينية، علت تحت النافذة، أصوات أصداف ودفوف مرحة. وصوت غنى فى ظلمات الليل:

نحن جئنا إلى هنا،

وإلى هنا وصلنا،

ولو سمحتم لنا،

سنغنى لكم هنا!

السيد أرثيبريستى أفسح الطريق لهم وفتح الباب بنفسه، وحلقة من الشبان اقتحمت المطبخ الذى يكون مفتوحًا دائمًا للضيوف. كانوا قد أتوا من قرية بعيدة؛ والذين كانت معهم الدفوف شرعوا فى الغناء:

امشوا ببطء

امشوا بخفة

حتى لا نوقظ

طفلنا

طفلنا

يسوعنا

الذى ينام فى تبن المذود

دون مهد ودون نور

سكتوا للحظة. وخلال العزف بين الأصـــداف والـــدفوف عاودوا الغناء:

نعم لن نخرج لأن عندنا

هذا الوجه القروى

سوف نبوسه أربع بوسات

هذا الوجه التفاحى

هيا بنا من هنا للقرية

والآن قد قطعنا الطريق مشيًا

وها هو يسوع نائم

ويمكننا أن نوقظه

وبعد أن انتهوا من الغناء، شربوا من ذلك النبيذ الحامى، المنعش الصحى، الذى جنى محصوله السيد أرثيبريستى، وممتلئين بالسرور والدم الحار خرجوا يصدرون أصوات القواقع والدفوف. ولم نزل نسمع طرقعة قباقيبهم على سلالم الفناء عندما استهلّ أحدهم بأغنية:

هذا بيت وهو من الحجر

والعروس قامت فجأة

لكى يناما معًا

الأسقف وبنت أخته

وعندما سمع الكوبليه قطب السيد أرثيبريستى جبينه، وميكائيلا قامت ثائرة، ورفعت القدر حيث يغلى التفاح المحفوظ التقليدى، وجرت إلى النافذة تطلق صيحاتها:

ــ كلام قبيح!... تلميحات قبيحة! ومثلكم ستخرج هكذا على الطريق ذئاب مسعورة!

والسيد أرثيبريستى، دون أن ينبس ببنت شفة، مضى يقطع/ يوخز السيجار بظفره، ويفرك النشوق/ السعوط بين كفيه. وبعد أن انتهى وصل إلى الفرن وأخذ شعلة من النار التى أشعل

بها القنديل... عندئذٍ حدقت فى عينيه المتجهمتين تحت حاجبيـــه الشائبين الناميين. ارتعشت. والسيد أرثيبريستى قال لى:

ـــ ماذا تفعل؟ امش وهات كتاب الـــ نيبريخا.

خرجت وأنا أتنهد. وهكذا تمت ليلة عيد الميلاد فى بيـــت السيد أرثيبريستى دى سينجوس. Q. E. S. G. H

صلاة

كانت صديقة ميتة هى الآن، هى التى بعناية محبة
جمعت هذه القصص، التى كتبت كيفما اتفق وفى
أماكن عديدة، لكى تموت منسية. وعندما فى يوم
ما سلمتها لى بعد سنوات عديدة، أعتقد
أننى وجدت فيها عطر يديها، مسكينة
الأيدى الباردة، يا رب تقدر
ترجع الآن لتعطّر هذه
الصفحات!

المؤلف فى سطور

رامون ماريا دل بايى إنكلان.

- ولد الكاتب الإسبانى رامون دل بايى إنكلان فى ٢٨ أكتوبر ١٨٦٦م فى قرية بيا نوبيا دى أروسا بإقليم جليقية شمال غرب إسبانيا، وتوفى فى السبعين من عمره يناير ١٩٣٦م بعد صراع مع المرض بمدينة سانتيا جودى كومبوستلا.

- اهتم منذ بداية شبابه بالاطلاع على أوجه الثقافة المختلفة من مسرح وأدب وفن تشكيلى، وسافر إلى المكسيك وخاض تجربة الكتابة للصحف بها، وتعرف إلى الواقع المكسيكى من خلال الجالية الإسبانية فيه، ثم كوبا، وبعد عام عاد ليعيش فى سانيتياجو ويصدر أول كتاب له "نسائيات"، انتقل بعده إلى مدريد ليستقر بها، وترجم أعمالاً عن الفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، ثم شكّل مع مجموعة من كبار المبدعين بعد هزيمة إسبانيا وخسارتها لآخر مستعمراتها فى أمريكا اللاتينية جيل ٩٨، مع بميل دى أونامونو، وبيوباروخا، وأنطونيو ماتشادو، وأثورين.

المترجم فى سطور

محمد إبراهيم مبروك

– ولد فى أول يناير عام ١٩٤٣م، فى قرية طملاى مركز منوف/ المنوفية/ مصر.

– ليسانس آداب / قسم التاريخ / آداب الإسكندرية.

– احتفى به يحيى حقى ونشر له القصة القصيرة التى اشتهر بها: "نزف صوت صمت نصف طائر" بمجلة المجلة المصرية فى أكتوبر ١٩٦٦م.

– انخرط فى الحياة الثقافية منذ الستينيات، فشارك فى هيئة تحرير "جاليرى ٦٨" وشارك فى تأسيس جمعية كتاب الغد ١٩٧٢م، وشارك فى إصدار كراسة النديم الثقافية فى الإسكندرية فى الثمانينيات.

– بعد نشر أعماله القصصية فى مجلات: "المجلة" و"جاليرى ٦٨"، و"الفكر المعاصر"، و"أدب الغد"، و"مواقف" التى كان يصدرها أدونيس، و"الكرمل" التى كان يرأسها محمود درويش، أصدر أول مجموعة قصصية له، وهى: "عطشى لماء البحر" عام ١٩٨٤م (نفدت) والطبعة الثانية ١٩٩٦م (نفدت).

– ما إن قرأ مبروك قصة ليس لدى الكولونيل من يكاتبه حتى أصبح مسحورًا بأدب أمريكا اللاتينية، فدرس اللغة الإسبانية وترجم منها قصصًا لكل من: بورخيس، لوجونيس، إيزابيل الليندى، خيراردو ماريا، إيبار جنجوتيا، أرتورو أوسلا بيترى، وآخرين، وكلها صدرت فى كتاب "رقص الطبول"، سلسلة كتاب اليوم عدد نوفمبر ٢٠٠٧م، وطبعة أخرى صدرت عن سلسلة آفاق عالمية عن هيئة الثقافة الجماهيرية عام ٢٠٠٩م، وقبله كتاب "وسم السيف" ١٩٩٩م، عن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر.

– كما صدرت ترجمته لمجموعة الكاتبة المكسيكية الكبيرة "أمبارو دابيلا" هذه الأيام عن سلسلة "الجوائز" بالهيئة المصرية العامة للكتاب، بعنوان: "حين تقطعت الأوصال" وهى أول مجموعة تصدر لها بالعربية.

– كما اهتم بترجمة قصص وحكايات للأطفال من أمريكا اللاتينية وإسبانيا والبرتغال نشرت معظمها فى مجلة "العربى الصغير" الكويتية، ومجلة "قطر الندى" المصرية، وجريدة "العربى" القاهرة.

التصحيح اللغوى: حامد إبراهيم
الإشـــراف الفنى: حسن كـــامل

إعصار إبداعات تتفجر بطاقة مبهرة تستعصى على النكوص أو الأسر فى الأشكال الموروثة، فنراه يهب مجتاحا الطرق المطروقة، والحدود السابقة عليه ليمحوها، شاقا لنفسه طرقا جديدة مغايرة - سميت فيما بعد باسمه - خالقا لغته، وأساليبه، ورؤاه المتألقة دوما التى حملتها لنا موهبة عظيمة، خلقت مكانها ومكانتها السابقة فى القلب الحى لتاريخ بلاده، وتاريخ العالم، وعن حديقة موحشه يقول "بايى إنكلان":

كان عند جدتى بتول طاعنة فى السن تسمى ميكائيلا لاجالانا، ماتت وكنت مازلت طفلاً: أتذكر كيف كانت تقضى الساعات وهى تغزل فى فتحة إحدى النوافذ، وكيف أنها كانت تعرف قصصا كثيرة عن قديسين، ونفوس معذبة، وشياطين، ولصوص. الآن أنا سأحكى تلك القصص التى كانت تحكيها لى، بينما كانت أصابعها المليئة بالتجاعيد تدير المغزل. تلك الح من شخص غامض وساذج ومأساوى، كانت تفزعنى فى خلال سنوات طفولتى ولذلك لم يدركها النسيان، ولا ت وقت لآخر تلح على ذاكرتى، كما لو أن ريحا صامتة وبا فوقها، لها نفس الحفيف لأوراق شجر جافة وساقطة. ال الذى لحديقة عتيقة مهجورة! حديقة موحشة.

لوحة الغلاف للفنان ليوناردو دافنشى
تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح